بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 09 يونيو 2017

البطولة والبطولة المضادة في تغريبة بني هلال

«وكأنك يا بوزيد ما غزيت»

عبد السلام شرماط
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخص:

تبقى السيرة الهلالية واحدة من السير الشعبية في الموروث العربي التي تؤثل لجماعة أعرابية صالت وجالت في بلاد العرب شرقا وغربا بحثا عن الاستقرار والعيش الهانئ، غير أن قيما لم تكن معهودة في عرف بني هلال تسربت إليهم من خلال تيمة الفتنة التي لعبت دورها في كسر شوكتهم، وإنهاء ما حققوه من انتصارات في بلاد المغرب. لكن السؤال الذي يبقى مصاحبا للسيرة، هو:

هل فعلا أن وازع القحط والجفاف هو الذي حرك بني هلال نحو بلاد المغرب؟ أم أن ثمة أسبابا أخرى- سياسية ودينية- لم تفصح عنها السيرة كانت هي المحرك الفعلي لبني هلال إلى بلاد المغرب؟ سيما وأن العهد التاريخي الذي عاشوا فيه هو عهد صراع أيديولوجي بامتياز بين بني العباس في بغداد والفاطميين في مصر.

عموما تبقى السيرة الهلالية واحدة من السير التاريخية العربية التي دونت أكبر هجرة عربية في التاريخ العربي، انطلق فيها بنو هلال وبنو سليم من بلاد المشرق متجهين إلى بلاد المغرب، وتضمنت السيرة أحداثا صيغت بلغة شعبية قريبة إلى عامة الناس حتى يتمكن الجميع من التقاط ما ورد فيها ويتفاعلون مع أحداثها التي أسهم في تحريكها شخصيات رئيسة أبرزها أبو زيد الهلالي والأمير حسن بن سرحان؛ وكان للشعر حضور بارز في هذه الأحداث، حيث قدم الراوي أشعارا تعبر عن مواقف مختلفة؛ منها ما هو حماسي ومنها ما هو وجداني عبر مراحل السيرة الثلاث؛ أي مرحلة الريادة ومرحلة المسير ومرحلة الأيتام، وهي مراحل شكلت وثيقة تاريخية تستجلي الماضي في صورة الحاضر قصد الامتداد في المستقبل.

على سبيل البدء:

تعد دراسة الحضارات من أخصب ميادين الفكر، ذلك أنّ البحث في حضارة أمّة ما وتراثها وماضيها يساعد الباحث على الانطلاق إلى آفاق التجديد والإبداع؛ فالحضارة تكشف عن ذاتها بصورة مستمرة في الوعاء الثقافي للأمة، لأنّ الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع، ووفقاً لهذه الفكرة يمكن القول: إنّ حضارة الأمة تبدو في كل منجزاتها العقلية والجمالية والمادية ومظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية واللغوية والتشريعية، وما يسود من معايير وقواعد أخلاقية[1].

إنّ التواصل الثقافي الحضاري بين المجتمعات الإنسانية يستدعي من الثقافة الواحدة أن تأخذ وتعطي من مجموع الثقافات الإنسانية الأخرى، تأخذ ما يتفق مع طبيعة مجتمعها، وتعطي ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال، حيث تتفاعل الحضارات والثقافات المختلفة مع بعضها البعض قصد إشباع حاجات الإنسان الفكرية والمادية. «والذي لا شك فيه أنّ الحضارة العالمية وتطورها في مراحل عبر تاريخ الإنسان ذاته، ينظر إليها كنتاج لتفاعل حضارات مختلفة نشأت وازدهرت في بقاع مختلفة من العالم، ولهذا السبب أيضاً، فإنه غالباً ما ينظر إلى الحضارات المختلفة على أنها في اتصال كحلقات السلسلة الواحدة.[2]

ومن المسلم به أن لكل شعب ثقافته الخاصة به التي ينسجم معها، انطلاقًا من قيمها وعاداتها ورموزها بوصفها خصائص تنمو من خلال تفاعل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، مما يؤدي إلى نمط حياتي يخص هذا المجتمع أو ذاك، يسهم في نموها وتطورها حتى ترقى إلى مستوى التأثير والإعجاب. لذلك، نقر بأن الأمة العربية تختزن ثقافة شعبية غنية يمكن التزود بها، إن لم نقل التسلح بها لمواجهة أي غزو ثقافي، فإذا كانت الثقافة الغربية اجتذبتنا بتطورها التقني إلى درجة الانبهار والإعجاب، فإنه من الواجب علينا أن نطور من ثقافتنا باستثمار نصوصها وفق ما يتماشى مع طبيعة المرحلة التي نعيشها اليوم، وذلك بغرض تشييد نوع من التكافؤ بين الثقافات، وبالتالي يتحقق فعل التثاقف، إذ إن المثاقفة هي الوسيلة التي تسمح بالاستفادة والإفادة من الثقافات الأخرى، وليس هيمنة ثقافة على أخرى، أو ما يسمى بالانتشار الثقافي، إذ تصبح الثقافة الواحدة هي السائدة، بسبب الانبهار والإعجاب بالثقافات الأخرى، وهو ما يؤدي إلى الانهزام الثقافي الذي يسمح بالغزو الثقافي.

وبما أن ثقافتنا الشعبية هي الثقافة الأكثر تعبيرًا عن تفاعلات الحياة اليومية بوصفها ثقافة تنبع من الذات وتتجه نحو الذات، فإن شروط العصر بكل تحولاته تفرض علينا اليوم أن تخرج هذه الثقافة بكل أشكالها

1- عبد السلام شرماط، المعتقد الشعبي والديني في أفريقيا، موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود 24- مايو 2014

2- ماهر عبد القادر، **التراث والحضارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت، ص 5

التعبيرية من دائرة الذات لتتجه نحو الآخر، حتى يطلع عليها ويعرف مضمونها وخصوصيتها، وهذا لا يتأتى إلا باستثمار النصوص وتطويرها وفق ما يقتضيه العصر، وبهذا قد يتحقق بعض التكافؤ بين الانبهار بالتقدم التقني والإعجاب بأشكال التعبير في الثقافة الشعبية، التي لا تخلو من إعجاب وإثارة تثير بال الآخر لينبهر بها ويجد نفسه يكررها ويمارسها في حياته اليومية، وبهذا تكون ثقافتنا الشعبية أدت دورًا مزدوجًا؛ تَمّثل الأول منها في الحفاظ على الخصوصيات الأصيلة لهذه الثقافة، وأصبح الثاني واجهة لثقافتنا عند الآخر، وبدل أن نعيش في دائرة الانبهار الثقافي الذي يؤدي إلى الغزو الثقافي، فإننا نمارس تبادل الثقافات بنوع من التكافؤ.[3]

1- الحكاية والسيرة الشعبيتان:

تأسيسًا على ما سبق، تقتضي الضرورة المنهجية تحديد مفاهيم النصوص الشعبية وبيان الحدود الفاصلة بينها، وإن كانت صفة الشعبية هي الجامع بينها، حتى يتأتى للقارئ الكريم تكوين صورة متكاملة عن هذه النصوص، وبالتالي بيان إمكانية تطويرها حتى ترقى إلى مستوى المبادلة والإفادة، ولأن المجال لا يسعنا للتفصيل بين جميع هذه النصوص، ولأن موضوع الدرس يقف عند حدود السيرة، آثرنا الوقوف عند الحدود الفاصلة بين الحكاية الشعبية والسيرة.

أ- الحكاية الشعبية:

الحكاية الشعبية نوع متميز عن بقية أنواع الأدب الشعبي الأخرى؛ فبالعودة إلى المعاجم الأجنبية وخاصة الألمانية التي حفلت بشكل خاص بالثقافة الشعبية، بأنها الخبر الذي يتصل بحدث قديم، ينتقل عن طريق الرواية الشفهية، من جيل إلى آخر، أو هي خلق حر للخيال الشعبي، ينسجه عن حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية. أما المعاجم الإنجليزية، فتعرفها بأنها حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة، وتتطور مع العصور، وتتداول مشافهة وتختص بحوادث أو بأبطال فاعلين في التاريخ.[4]

والحكاية- فوق ما تقدم من تعريفات- هي نص شعبي يحتضن كل الأحداث والمشاعر الإنسانية، اشتق لغويًا من المحاكاة والتقليد، وأصبحت نصًا يحاكي الواقع في كل مستوياته، بما في ذلك الواقع النفسي الذي يمزج مادته الحكائية بين خيال واقعي وواقع خيالي، يؤسس لعوالم نصية تقوم على السحر والأسطورة والكنوز الخفية، ويرسم بوضوح ثراء الثقافة الشعبية بخيالها وواقعها، مع الحفاظ على الحدود الزمانية التي تربط الحاضر بالماضي البعيد واليوم بالأمس.

3- عبد السلام شرماط، الحكي والأسطورة أية علاقة، موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 10 سبتمبر 2013

4- مريم خير الدين الغابري، ما بقي من الحكاية، مجلة الموروث، ع 2 يونيو 2016، ص 98

ولما كانت الحكاية الشعبية جزءًا لا يتجزأ عن الأدب الشعبي، فإنها عادة ما تعبر عن بيئة اجتماعية بما تحمله هذه البيئة من ميزات فنية وأدبية وصور أخلاقية وفلسفية وطقوس دينية، إذ تقدم على ضوء هذا صورة اجتماعية، غالبًا ما تكون الغاية من موضوعها الإصلاح والتوجيه والدفاع عن الحياة، حتى وإن احتوت على معتقدات ونزعات الإنسان البدائي بسلوكياته ومعتقداته التي تركن إلى السحر والغيب، وكل ذلك في سبيل معالجة قضايا الإنسان وتوجيهه نحو غاية أخلاقية وتربوية.[5] غير أن السؤال الذي يؤرقنا حسب الوظيفة التي تؤديها الحكاية الشعبية، هو:

هل يمكن للحكاية الشعبية الصمود أمام التطور التكنولوجي والمعرفي المتراكم؟ هل يمكن للراوي معاندة المحكي المتكنج[6]؟

إن الحكاية الشعبية في نصوصها الأصيلة تقوم على غاية قوامها التربية والتوجيه والتطهير، وعلى الراوي، لكي تصمد وتثبت وجودها، أن يطور هذه الغاية، ويجعل من حكايته محكيًا قادرًا على الجذب والإثارة، وينتقي لغة حكائية تستجيب لشروط العصر، عصر أصبحت الإنسانية تعيش فيه واقعًا منافيًا لروح الإنسانية التي يمكن للإنسان أن يكون فيها إنسانًا، فالإنسان اليوم أمام قوة الآلة وتراكم التقنية، تراجعت أخلاقه، وبات يلهث وراء الربح المادي بأية وسيلة، وانتفت قيم المساواة والعدالة والمحبة، ولعل الحكاية الشعبية التي تضطلع بدور الوعظ والتوجيه عليها أن تعيد الإنسان إلى جادة الصواب عبر التطهير النفسي، وتذكره بالقوى الخارقة التي تفوق حدود العقل وقوة التقنية؛ فالراوي يجر السامع إلى الاعتقاد بأن ما يجري لا يتجاوز حدود الممكن والواقع، فيصوغ حكايات تمتح مادتها من الغريب والعجيب، لتصبح المادة تعبيرية لا تتناقض مع المألوف، بل تدفع السامع إلى الشعور بمزيد من الرغبة في الاستماع، فبفضل «الجو الخرافي الأسطوري وخلط التواريخ والتكرار ومتعة الحكي والحوار الذاتي لا يجتذبنا واقع الحكاية كنص فقط، وإنما تجتذبنا حكاية الواقع بكل ما يحمله من فواجع وآمال.

ب- السيرة:

تعد فنون الحكي الشعبي نتاجا تاريخيا مستمرا، والسيرة الشعبية هي واحدة من هذه الفنون، وقد ارتبط مفهوم السيرة - لغة - بفعل سار؛ فقد ورد في لسان العرب، سار بهم سيرة حسنة؛ والسيرة معناها الهيئة[7]، إذ ورد في قوله تعالى: «قال خذها سنعيدها سيرتها الأولى»،[8] والمعنى يفيد هيئتها أو الحالة التي كانت عليها؛

5- عبد السلام شرماط، الحكاية الشعبية، مجلة فضاءات، طرابلس، ع 31، 2007، ص 45

6- الحكي الذي يخضع لشروط تكنولوجية حديثة، وهو ما يسلب لب الأطفال اليوم في القنوات الفضائية.

7- ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل بيروت لبنان، ط1، مج 3، 1997، ص 378

8- سورة طه/ 21

وفي الاصطلاح هي نوع أدبي يعنى بحياة شخص ما أو مجموعة من الأشخاص، ولأن السيرة تتوزع بين السيرة الذاتية والتعليمية والتاريخية؛ فإن هذه الأخيرة تعنى بتسجيل الأحداث، والحروب والوقائع المختلفة، إذ تتناول أعمالا تتصل بالأحداث العـامة، أو منعكسة منها أو متأثرة بها، وقد تتضمن إضافة إلى ذلك غايات خلقية أو وعظية، ولكن يظل البعد التاريخي فيها هو السائد والغاية الكبرى. والسيرة عموما هي بنية مركبة من تاريخ، وفكر، وفن، وحضارة، ودين. وبالتالي، فإنّ لها قدرة على الامتداد، ويمكن اعتبارها مرجعاً ثقافياً متميّزاً تنهل منه الكثير من الدراسات الاجتماعية والفكرية والتاريخية والفولكلورية، إنها مكوّن أساسي من مكوّنات الفكر الإنساني، وقد رافقت الإنسان في كفاحه المتواصل مع الطبيعة وتبدلاتها وقسوة الحياة وشظفها، وهي المعادل لخيبات هذا الإنسان، والبؤرة التي يرى منها النور والفرح وإشراقات المستقبل، إنها تجسّد حلمَ الإنسان في مستقبل أكثر نقاء، وفي علاقات أكثر تكافؤاً وعدالة.

إذن، ثمة حدود بين الحكاية والسيرة، وإن كان يجمعهما قاسم مشترك هو الحكي الذي يمزج بين الواقع والخيال، والغاية منه كما ذهب إلى ذلك أرسطو هو الإمتاع، وآية ذلك أن الناس جميعا حينما يحكون حكاية يضيفون من عندهم ابتغاء الإمتاع[9] وعادة ما يقدم الحكي العجيب غطاءً لتجاوز الضوابط الاجتماعية، والتخلص من الممنوعات والمحرمات الاجتماعية tabou المفروضة على الإنسان. فالحكي يقوم على أساس اجتماعي، ويؤسس بعناصره الفوطبيعية واقعًا حقيقيًا يمتزج فيه الواقعي بالمتخيل، ويشيد نصًا إبداعيًا له دلالاته الاجتماعية والأخلاقية؛ فعجوز، مثلا، سرقت بوسائلها السحرية من بنت زوجها جمالها الفتان، وحولتها إلى حيوان صغير؛ أو غول يتحول إلى شاب جميل ليتزوج من فتيات القرية الجميلات؛ هي حكاية من الحكايات التي ليس من السهولة بمكان استيعابها في مجتمعات عقلانية، ولكن من السهولة قبولها في مجتمعات أخرى، ما دامت الأمور تتنوع بين مجتمع وآخر؛ فالمجتمعات التي تؤمن بالخرافي يصبح فيها الحكي العجيب عاديًا، مادام الخرافي يتحول إلى ممكن، وتصبح العناصر اللاواقعية أساس الواقع، عبر خرق المألوف وتكسير قواعده.

2- السيرة والتاريخ:

تمثل السيرة كمبحث من مباحث التاريخ حياة إنسانية متكاملة، تنطلق من تاريخ الأجداد والآباء وتمتد إلى الأحفاد، فهي تحتوي الماضي والحاضر وتمتد إلى المستقبل؛ لذلك احتلت السيرة مكانا بارزا في مدونة التاريخ، «فإذا كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها في أي جانب من جوانب الحياة الإنسانية، فإن السير هي البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فَذٍّ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه في جيله؛ لذلك كانت

9- أرسطو، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص 69

أقرب إلى التأثير الدرامي من كل ألوان التاريخ الأخرى، وكانت أكثر إثارة للقارئ من كل كتابة تاريخية غيرها، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التي تثور في أعماق البشر، والتي تتجرد منها الواقعة التاريخية كحدث، وإن كانت من عمل الإنسان ذاته؛ ذلك أننا حين نقص من خبر الواقعة التاريخية نجردها من كل ما يدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس الإنسانية وحوافزها، فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها؛ فهي التي تضفي عليها رداء التاريخ وبهجته، وهي التي تحببها إلى النفس الإنسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى ما جرى. وقد تطغى السيرة على التاريخ وتحتل الجانب الأكبر من مدونته، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ ليس إلا سيرة عظماء الرجال، وهي نظرة قد بليت في بوتقة التفكير العلمي الصحيح، إلا أن السيرة لا تحتل مكانها الحقيقي في مدونة التاريخ ما لم تكن هي نفسها تعبيرًا عن الحقيقة التاريخية، تلك الحقيقة التي تجمع بين البطل والقوى الاجتماعية التي تتجاوب معه وتحدوه إلى الغاية التي تنشدها».[10]

ومن ثمة فالعلاقة بين السيرة والتاريخ هي علاقة تكاملية، إذ ترفد السيرة من أحداث تاريخية كما يرفد التاريخ مما يرد في السير، بعلة أن التاريخ هو تاريخ النفس الإنسانية. وعليه لا يكون تدوين السيرة بالأمر السهل والبسيط، إذ يجب على كاتبها أن يكون قادرا على امتلاك خبرة المؤرخ، وإحساس الأديب معا، فأبرز ما في السيرة هو العمل الكبير الذي يقدمه كاتبها، على اعتبار أن السيرة تشمل حوادث جلى يحياها بطل السيرة أو جماعته، وبالتالي تشكل مداخل ينفذ منها كاتب السيرة ليقدم عملا يجمع بين التاريخ والأدب، إذا ما افترضنا أن السيرة بها إبداع شعري أو ما شابه من الفنون التي تتعالق مع النص السيرة، وإذا لم يبلغ الكاتب هذا المبلغ، فإن عمله يبقى باهتا تنقصه درجات الإبداع والتأريخ، ويكون نص السيرة نصا عاديا تغيب فيه جماليات التدوين والحكي، ويبقى سردا لحياة عادية خالية من كل إثارة أو تشويق.

ويجدر التنبيه إلى أن خيال المؤرخ بائن عن خيال كاتب السيرة؛ فالمؤرخ يتعامل مع الأحداث بشكل موضوعي رسمي وواقعي بعيدا عن الخيال والانفعال، بينما يعمل كاتب السيرة على استزادة عناصر فنية تضفي طابع الأدبية على السيرة؛ حيث يقفز من الواقع إلى الخيال؛ فمهما اقترب من صور الحقيقة أو الواقعية، فإن واقعيته، لا تعدو تصويره للحياة في الصورة التي يرتجيها، أو الصورة التي هي عليها، ومهما أوغل في الواقعية، فإن واقعيته تتعلق بصورة أو عدة صور من صور الحياة التي يغلب عليها الطابع الدرامي، لذلك نراه يتخيل أبطاله من أناس غير عاديين، أوجدهم القدر، فأوغل بهم إلى حيث تختل إرادة الإنسان، وتبطل إيجابيته، فهو في الغالب مسوق إلى غاية ليست ككل ولكنها غاية فيها بعض الشذوذ، أو كل

10- انظر حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، المكتبة الثقافية رقم 121، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة، الثقافة والإرشاد القومي، 1964م، ينظر ص 14 - ص 16

http://www.alukah.net/sharia/0/101378/#ixzz4PJagS7gm

الشذوذ عن التواتر المعروف في الحياة، وليس من الضروري أن يكون الشذوذ انحرافا في نزوات الإنسان أو نزعاته، ولكن يكفي أنها تجربة غير عادية تمر بحياة إنسان ما.[11]

3- السيرة في التراث الشعبي العربي:

أ- شعبية السيرة:

تتميز السيرة الشعبية العربية بخصائص فنية تجعلها فنا قائما بذاته، وأول هذه الخصائص اللغة التي رويت بها، فغالبا ما تكون لغة وسطى تجمع بين العامية والفصحى، وتتخللها قصائد شعرية، وغالبا ما يكون عنصر البطولة بارزا فيها؛ فالراوي غالبا ما يقدم بطلا رئيسا يدخل في مواجهات مع أبطال آخرين دفاعا عن قومه، كما هو الشأن في سيرة سيف ذي يزن أو سيرة عنترة بن شداد، أو سيرة بني هلال موضوع البحث. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو لماذا نسم السيرة بالشعبية قياسا بالحكاية الشعبية؟

تجدر الإشارة إلى أن ثمة سيرا كتبت باللغة العربية الفصحى، مثل سيرة ابن هشام وغيرها، غير أن السير الشعبية حملت هذه السمة؛ أي الشعبية لبيان هويتها وتحديد طبيعتها النوعية، والواقع أن معيار شعبية السيرة هو جمعيتها، والجمعية هنا تعني أن السيرة من إنتاج الجماعة الشعبية، وأن أبناء هذه الجماعة يتواترون السيرة ويتداولون روايتها، ويتبنونها، باعتبارها معبرة عن مثلهم وقيمهم ورؤاهم الجمعية. ومن ثمة، تكون السيرة الشعبية مشاعا مشتركا بينهم، يتملكونها جميعا؛ فالسيرة الشعبية عندما تتبناها الجماعة وتتواتر روايتها، تكون قد أصبحت من إنشائها، ويتم إقرار صياغتها بوساطة الإبداع الجماعي. فالإبداع يبدأ من الفرد ولكن ينتهي بالجماعة، الأمر الذي جعل السير الشعبية التي وصلتنا تتسم بالضخامة على الرغم من قلتها؛ فالكثير من السير الشعبية اختفت ولم يصلنا منه إلا القليل، وإن ما زال تراثنا العربي يحتفظ بسير اشتهرت وأصبحت أدبا شعبيا معروفا في ربوع الوطن العربي، نذكر منها: سيرة عنترة بن شداد، وسيرة الزير سالم، وسيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة بني هلال، فهي سير تحوي أحداثا تؤرخ لواقع عربي يواجه عبر التاريخ أطماع الطامعين، وتدعو العرب والمسلمين إلى مواجهة أعدائهم.

وينهض مجموع السير الشعبية العربية على ثلاثة أقسام، يمكن توزيعها كالتالي:

*- السير التي تتحدث عن الفروسية العربية، وأشهرها سيرة عنترة بن شداد، والتي تدور أحداثها داخل الجزيرة العربية بين قبائل العرب في العصر الجاهلي.

11- كتاب التاريخ والسير (د. حسن فوزي)، مجلة دعوة الحق، ع 176،
http://habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/4686

* السير التي تتحدث عن الغزوات الإسلامية، وقد برز فيها علي بن أبي طالب الذي برز بطلا مسلما يواجه كل كفار الدعوة الإسلامية، وسيرة الظاهر بيبرس الذي استطاع مواجهة المغول.

*- سيرة الهجرات والتي تنفرد بها التغريبة الهلالية، وهي السيرة التي تتحدث عن أكبر هجرة بشرية تناقل أخبارها الناس، هجرة بني هلال من ديارهم الواسعة من الجزيرة العربية واستقرارهم في شمال أفريقيا.

ب- البطل في السير الشعبية:

تشكل البطولة واحدا من الموضوعات الرئيسة للعديد من أشكال الأدب الشعبي على تعددها وتنوعها، وعلى رأسها أساطير البطولة والملاحم وحكايات الخوارق والأساطير الدينية التي تتضمن سير الأنبياء والأولياء والقديسين، وغيرها، وربما يرجع ذلك إلى أن الإنسان منذ أن أحس بوجوده على الارض، كان همه أن يصور النموذج البطولي للإنسان فائق القوة الذي يستطيع أن يحقق شيئا لشعبه بشكل خاص.[12]

وقد ارتبطت البطولة في السيرة الشعبية بمنظومة أخلاقية مثالية، بعضها يمثل الجوانب النفسية والسلوكية التي ترتبط بصفة البطولة ذاتها كالشجاعة والإقدام والثقة بالنفس، [13] ليمثل البطل بذلك النموذج الإنساني المرغوب فيه اجتماعيا.

وإذا كانت السيرة تقوم على تتبع حياة شخص منذ ولادته، وعبره يتم استعراض الأحداث العامة الكبرى، إذ تقدم لنا شخصا ينطوي على عدد من الصفات المتميزة والمتفردة، ومنها الشجاعة والكرم والذكاء والفروسية وأحيانا قول الشعر[14]؛ فإن البناء الفني للسير الشعبية العربية يقوم على مراحل، تبدأ من تطور البطل الرئيس للسيرة؛ وهو تطور نمطي يتكرر من سيرة شعبية إلى أخرى، حيث يمكن اعتباره المحور الرئيس في السير الشعبية بصفة عامة، حيث تبدأ السير الشعبية عادة بمرحلة بدئية تكشف عما قبل ولادة البطل، ثم ولادة البطل نفسه، ثم قضية البطل الخاصة التي يعيشها في إطار مجتمعه الخاص، وتنتهي بانتصاره في قضيته، وتطهره الكامل من الظروف التي كانت تحيط به؛ بمعنى أن ثمة تقنيات يخطط لها الراوي في السيرة لتقديم البطل في الصورة التي يريدها المتلقي، ولعل أول ما يقدم الراوي بعد المراحل الأولية في الحديث عن البطل، الأوصاف والنعوت التي يتميز بها البطل عن بني جلدته من حيث قوة الجسم والتميز في القتال والقدرة على صرع الأقوياء، ليرسم صورة تصاحب المتلقي منذ بداية السيرة، ومفادها أن هذا البطل لا يقهر.

12- هشام بنشاوي، تجليات البطولة في الأدب الشعبي، الموروث، ع2 يونيو 2016، ص 128

13- المرجع نفسه، ص 131

14- نفسه، ص 131

ففي السير الشعبية المعروفة، تبدأ مرحلة السيرة الأولى بـ «التأصيلة»، والتأصيلة مرحلة ما قبل ولادة البطل، وتمتد إلى أبعد ما يمكن الابتعاد إليه من زمن يربط نَسَبَهُ وقبيلته بأجداده من ذوي الحسب والنسب من أنبياء وحكماء وزعماء، حيث تتبع التأصيلة النسب الكريم للبطل تتبعاً روائياً، وهي تثبت المواهب التي سيتحلى بها البطل وتعود بها إلى جذورها التي ظهرت في أفعال من سبقوه ممن انحدر منهم نسبه؛ فهي تثبت شرف البطل بالنسب، كما ستثبت أحداث السيرة بعد ذلك شرفه بالفعل، كما هو الحال في سيرة عنترة بن شداد.

وبعد الحديث عن الأصل والنسب، يبدأ الحديث عن ولادة البطل، وما تتسم به من خصوصيات؛ فكل ولادات أبطال السير محاطة بالمخاوف والمحاذير وبهالات درامية تعطي أثرها في إبراز أهمية المولود، وأهمية دوره فيما سيأتي من أحداث.

ومن ثمة، تبدأ المرحلة الموالية، وهي المرحلة التراجيدية التي يواجه فيها بمفرده صنوف الهموم والأهوال، وتنتهي بانتصار البطل على المعوقات التي وضعتها الحياة أمامه بجهوده الفردية المثمرة، والمنتصرة أبداً على الشر والظلم، ليقفز إلى مرحلة الفروسية، حيث يتفوق على جميع الأبطال المعروفين في محيطه، ويعزز مبادئ الفروسية من نصرة المظلوم والانتقام من الظالم، ويتوج انتصاره بحبه وزواجه من محبوبته بعد أن يعلو شأنه ويذيع صيته بين ذويه وعشيرته وبلده.

ثم تأتي المرحلة الأسطورية، وفيها تختبر قدرات البطل في تحدي قوى أعلى من القوة البشرية العادية كقوى السحر والطلاسم والكهنة والغيلان. وفي هذه المرحلة، يمثل البطل قوى الخير في مواجهة قوى الشر، مستعيناً بعشيرته وقوى الخير في مواجهة الفساد الإنساني والشر الشيطاني؛ فالبطل يرتقي من التغلب على همومه الشخصية في مرحلة التكوين، إلى التغلب على همومه العشائرية والقومية.

ويتلو ذلك المرحلة الملحمية في حياة البطل، حيث يصبح مؤهلاً لأن يكون رمزاً للتكتل والتوحد لمواجهة الأعداء وكل من يعترض سبيله أو سبيل أفراد عشيرته، وهو الحال البارز في سيرة أبي زيد الهلالي، إذ يتجرد البطل من مصالحه الشخصية، ويستجيب لمطالب الجماعة ليصبح بطلاً جامعاً.

وفي النهاية، تأتي مرحلة الامتداد، وفيها يموت البطل ميتة الإنسان العادي، ولكن أبناءه وأتباعه يواصلون رسالته، ويحملون رمزه واسمه، ويحاربون تحت شعاره لتحقيق نفس الأهداف والمُثل، كما هو الشأن في مرحلة الأيتام من سيرة بني هلال.

4- إشكالية البحث:

يظلّ متخيل الحكي الواقعي ـ داخل النصوص المروية ـ قابلاً للتماثل والتوازي مع ما يمكن تسميته بالواقع الممكن على أساس احتمالي، إذ نقرأ متناً حكائياً يتوازى مع واقع محتمل، انطلاقاً من واقع يكون مجال تحكّم خالص لرؤى العقل وتقديراته؛ فيما يشتغل الحكي اللاواقعي في النصوص المرويّة على أساس لا احتمالي، حيث تسند التحوّلات والأصوات السردية إلى شخصيات لا واقعية[15]، ممّا يضع المتلقي أمام بنية لا احتمالية تشدّ الانتباه في كثيرٍ من المفاجآت العجيبة والغريبة التي تجعله مصرّاً على الاستمرار في تتبع أحداث الحكي منذ البداية، وحتى النهاية؛ سيما إذا تعلق الأمر بالبطل/ الأبطال الذين يساعدون الراوي على نسج الكثير من الخيوط الحكائية التي تثري الأحداث وتسهم في بنائها؛ فالبطل غالبا ما يعبر عن رغبات الكثيرين ويحقق أحلامهم، سواء بالقوة أو بالحيلة كما هو الحال بالنسبة إلى أبي زيد في التغريبة؛ فالبطولة تسمو حين تخدم الجماعة، فتكون قيمة إنسانية نبيلة تتجاوز المصلحة الفردية، وإن تعددت شخوصها؛ ففي التغريبة كانت البطولة بالتناوب بين الأمراء الثلاثة وهم: حسن بن سرحان وذياب بن غانم وأبي زيد بن سلامة الهلالي، حيث استطاع هؤلاء الثلاثة بلوغ مرادهم وتحقيق مآربهم عبر تضامنهم وتعاونهم في مواجهة الخصوم، ولكن سرعان ما تلاشت أخلاقيات البطولة حين نزعت النفوس إلى المصالح الفردية وغلبت الأطماع الخاصة على مصلحة الجماعة، وهنا يبرز مفهوم البطولة المضادة.

فماهي القيم التي استندت عليها البطولة في سيرة بني هلال؟ وما الركائز التي قامت عليها؟ كيف تم تفتيت قيم البطولة في السيرة؟ وكيف أصبحت هذه البطولة بطولة مضادة؟

يجدر التنبيه – قبل الإجابة عن الأسئلة المذكورة أعلاه- أنّ فن السيرة على الرغم من كونه نوعا أدبيا قديما عني بتدوين التواريخ من الناحية المنطقية والتسلسل الزمني، فإن المادة الحكائية في «**تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة**»[16] تنبني على عدة مقاطع سردية صاغها الراوي في حلقات متسلسلة الأحداث، وهي أحداث يمكن النظر إليها كألغاز (enigmes) منحت السرد عمراً طويلاً، يشد انتباه المتلقي إلى حد يقف فيه بين الحقيقة والخيال، وكلما تمددت مقاطع السرد ابتعدت الحقيقة، وظل

15- شرماط (عبد السلام)، الصراع بين الإيمان والوثنية في السيرة الشعبية الإسلامية: سيرة راس الغول أنموذجا، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود؛

http://www.mominoun.com/articles/search?q=راس+الغول

16- عمر أبو النصر، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة وما جرى لهم من الحوادث اللطيفة والحروب الهائلة المخيفة....وفيها قصة مغامس مع بنت عمه شاه الريم، وقصة الدبيسي، والبردويل ابن راشد ملك العريش، وقصة جوهر الحبشي، وقصة الملك الفرمند حاكم مصر القاهرة، ونزول بني هلال، ورحيل حسين الجعيزي إلى أرض نجد، وغرق بني هلال في أرض المخضة، واسر الأمير ذياب، وهروب بنو زغبة، وقتل الأمير حسن، وقتل الأمير أبو زيد وغير ذلك من الأخبار العجيبة ..والقصص الغريبة..، دار عمر أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1971

عنصر التشويق يشتغل كإوالية لم تستطع السرديات ضبطها، لكون الظاهرة مشتركة بين عدة ممارسات تركن إلى السرد؛ فالسرد يحيا بألغازه ويموت بظهور الحقيقة.

وفي **تغريبة بني هلال**، حكي سردي ثري يشد انتباه المتلقي، وذلك لما فيه من أحداث يمتزج فيها التاريخي بالاجتماعي في قالب بطولي تبرز فيه الفروسية والشجاعة والمروءة والأنفة كقيم إنسانية نبيلة ترسم خطوط البطولة الهلالية في ربوع الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب وفق شخصيات نعتها الراوي بأوصاف تنوعت بين البطولة والحيلة، ليرسم لنا ملامح الفارس البطل من خلال شخصية دياب، وملامح البطل الفارس المخادع من خلال شخصية أبي زيد؛ الشخصية المحور في التغريبة، والبطل الحكيم من خلال شخصية الأمير حسن؛ فبتضامن هؤلاء وتعاونهم استطاعوا رسم ملامح بطولية ظلت عالقة في أذهان الناس، وفي تفككهم بسبب خلافاتهم وأطماعهم الفردية تراجعت قوتهم وانكسرت شوكتهم وانقلبوا على بعضهم بسبب ما أحاط بهم من فتنة قادتهم إلى الهلاك، «والفتنة أشد من القتل».[17]

5- العنوان والمنهج:

مادام العنوان «**تغريبة بني هلال**» هو مفتاح السيرة، فإنه هو العنصر الرئيس في توجيه السرد والتحكم فيه، والتغريب في اللغة يفيد معنيين: الأول يفيد الاتجاه نحو الغرب؛ والثاني يفيد البعد والنزوح عن الوطن[18]، والمعنيان معا يشيان بما تحمله التغريبة من أحداث، حيث الانطلاق من بلاد نجد في اتجاه بلاد المغرب، وفي ذلك نزوح وبعد عن الوطن. ومن ثمة، يفرض العنوان نفسه بين المقاطع السردية ليتحكم في حجمها ويفيد في مضمونها.

«**تغريبة بني هلال**» عنوان السيرة الشعبية، مقطع سردي يستقبله المتلقي كلغز من ألغاز السرد، ليعيده في جملة من الأسئلة، من هم بنو هلال؟ من أين اكتسبوا قوتهم التي ساعدتهم على اختراق جميع البلدان؟ وهل هذه السيرة فعلا سيرة شعبية واقعية أم أضيف إليها من الخيال ما يثير السؤال وبقوة في ذهن المتلقي؟

ثم تتحوّل هذه الأسئلة إلى فرضيات، يتصوّر فيها المتلقّي أنّ بني هلال جماعة[19] تبحث عن كيان لها تستقر فيه، وتضمن لنفسها حياة هانئة بعيدة عن الجدب والقحط، ما جعلهم يفكرون في بلد سيكلفهم الكثير من المشاق والمعاناة والحروب، حتى يصلوا إليه متوسلين في ذلك بالقوة تارة والحيلة والخدعة تارة أخرى؛ بمعنى أن العنوان يوحي بمغامرة تقود هذه المجموعة من بلاد الشرق في اتجاه بلاد الغرب، وهي البلاد التي

17- سورة البقرة/ 191

18- ينظر معجم المعاني.

19- تجدر الإشارة إلى أن ثمة جماعة أخرى تحمل الاسم نفسه، وهي جماعة يمنية تعود أصولها إلى قبيلة كندة قبيلة الشاعر الجاهلي المعروف امرؤ القيس.

ينشدونها بغية الاستقرار، غير أن الراوي لم يقدم السيرة في صيغة مباشرة تختصر الحكي وتختزل الزمن، وإنما منح الحكي بعدا زمنيا اختزن حكايات ومغامرات ومعارك وحيل وما إلى ذلك من أشكال الحكي التي تساعد الراوي على الإطالة، ويظهر ذلك جليا في العبارات التي تكررت في أكثر من حكاية. وهكذا يزداد التشويق وتشتغل الحبكة، حين يدفع الراوي بعجلة الحكي في شكل مقاطع متداخلة تضع المتلقي في ميزان فنتازي (FANTASTIQUE) يتردد فيه باله بين العجائبي والغرائبي، حتى وإن تضمنت السيرة بعض الحقائق التاريخية الثابتة، ذلك أن الراوي غالباً ما ينطلق من حقائق، لكن وفق حدود يتمتع بها بوصفه كاتباً أو راويا للسيرة، وفي ظل هذه الحدود يستطيع تخطي الواقع أحيانا، أو يمزج بينهما حتى لا تكون الأحداث شديدة على المتلقي، فيقع في الانبهار أو الصدمة.

وحتى نتمكن من استجلاء مقاطع السيرة، فإنّ المنهج البروبي نسبة إلى فلاديمير بروب صاحب "مورفولوجيا الخرافة"[20] يبقى السبيل الذي يسعفنا في توزيع المقاطع السردية عبر وظائف حددها بروب في إحدى وثلاثين وظيفة، والتي يمكن عدها قيماً ثابتة في المتن الحكائي للسيرة؛ غير أن استثمارها في التغريبة قد يستدعي منا بعض الاختزال والدمج بين الوظائف أحيانا أو التقديم والتأخير فيها.

ويجدر التنبيه أن فلاديمير بروب قد عرف الحكاية، أنها خطاب قصصي يكشف – في مستهله- ضررا ما أو إساءة لحقت بأحد الأفراد، أو رغبة في الحصول على شيء ما... يخرج البطل من المنزل؛ فيلتقي بالمانح الذي يقدم له الأداة أو المساعدة السحرية التي تسمح له بالحصول على الشيء المرغوب فيه، وتأتي بعد ذلك مرحلة العودة، فيظهر الصراع الثاني بين البطل وخصومه الذين يتابعونه، ويضعون في طريقه العقبات، ويتمكن من اجتيازها، ويؤدي المهمات التي تعرض عليه، وينجح في كل الاختبارات، وفي الأخير يكافأ ويتزوج ويعتلي العرش،[21] ولأن مثل هذه الوظائف تبدو جلية في السيرة الهلالية، آثرنا الاشتغال عليها وفق المنهج الروبي كما أسلفنا.

وقبل استثمار المنهج البروبي في الاشتغال على مقاطع السيرة، تقتضي الضرورة المنهجية الوقوف عند موضوعة السيرة وخطوطها الكبرى.

6- موضوعة السيرة:

تعد التغريبة الهلالية واحدة من السير الشعبية التي يختزنها موروثنا العربي الشعبي، إذ تمزج في طيات حلقاتها أحداثا تاريخية وقيما أدبية؛ فالأحداث التاريخية تكشف عن الانتصارات البطولية التي حققتها

20- Vladimir Propp, Morphologie du conte, Seuil / Points, 1965 et 1970

21- انظر ما بقي من الحكاية، مجلة الموروث ع2 يونيو2016، ص 100

شخصيات السيرة مثل أبي زيد ودياب والأمير حسن بن سرحان لبطل. أما القيم الأدبية، فتتجلى في الأشعار التي تعبر عن فلسفة مميزة في الحياة، إن لم نقل هي فلسفة تعكس رؤية الناس للحياة ومواقفها منها، وقد عبر الراوي عن هذا من خلال المسامرات والسهرات التي كانت تقام في ما بين بني هلال أو حين يحلون ضيوفا على غيرهم، حيث الأكل والشراب والطرب والأشعار، ما يعبر عن طبيعة حياتية خاصة تفرد بها بنو هلال وفق أدب تحكمه القيم الإنسانية الكبرى. ولعل الغاية من ذلك هو طبع السيرة بأسلوب الإمتاع والتأثير في نفس المتلقي.

ينتسب الهلاليون إلى هلال بن عامر بن صعصعة المضري، وأولاده عبد الله ونهيك وعبد مناف وصخر وشعثة وعائذة وناشرة ورؤيبة وربيعة. كانوا يقطنون في الجانب الغربي الشمالي، لصحراء نجد باتجاه الحجاز واليمن، لم يكن لهم شأن عظيم في الجاهلية، وكانوا قوماً مُغَلَّبِيْنَ، ليس لهم وقعة مشهورة أو يوم مشهود على غيرهم، لذلك قل المشهورون من أعلامهم، وجاءت شهرتهم من السيرة التي خلدت ذكرهم. وفي الإسلام خرجوا مع جيوش الفتح، وانتشرت بطونهم في أرجاء الدولة الإسلامية، واستقر قسم منهم في أعمال حوران من الشام، وشاركوا القيسية في حروب الخلافة، فكانوا مع الزبيريين ضد الأمويين، وناصروا القرامطة في البحرين، فانضمت بطون من بني هلال وبني سليم إلى جيش الأعصم القرمطي المتوجه إلى مصر لمنازلة الفاطميين، (360هـ)، وفي المعركة انحازوا إلى الفاطميين، وكانوا سبب انكفاء القرامطة عن مصر، فكافأهم الخليفة الفاطمي المعز، وأنزلهم على الضفة الشرقية لنهر النيل في صعيد مصر مع القبائل العربية الموجودة هناك، وظلوا في منزلهم هذا قرابة قرن، فتكاثروا مع انضمام أبناء عمومتهم إليهم، ولم يتخلوا عن طبيعتهم البدوية، فكثر شغبهم واضطرابهم، وكانوا مصدر قلق كبير للدولة. وكانت بلدان شمال إفريقيا تتبع الدولة الفاطمية؛ لأنها موضع نشأتها قبل استيلاء الفاطميين على مصر وجعلها قاعدة لخلافتهم، لكن أهالي المغرب انقلبوا على المذهب الفاطمي، وعادوا إلى المذهب المالكي السني (435هـ)، وصرفوا الخطبة عن الخليفة الفاطمي إلى الخليفة العباسي (439هـ)، واعتمد ذلك سعيد بن خزرون في طرابلس الغرب، والمعز بن باديس الصنهاجي صاحب الدولة الزيرية في القيروان. غاظ هذا الأمر الخليفة الفاطمي المنتصر، وعزم على إعادة إفريقيا إلى سلطته، لكنه لم يكن يملك القوة الكافية لفعل ذلك بسبب انشغاله في بلاد الشام، فأشار عليه وزيره الحسن بن علي اليازوري بإقطاع شيوخ بني هلال وبني سليم أعمال إفريقيا، وإطلاقهم عليها للقضاء على تمرد ابن باديس وابن خزرون، وللتخلص من القلاقل والاضطرابات التي يحدثها هؤلاء الأعراب في بلاد الصعيد، فأعجبت الخليفة الفاطمي الفكرة، ونفذها، فجهزهم ووجههم إلى بلاد المغرب وأباحها لهم. انطلقت جموع بني هلال وبني سليم غربا بقيادة يحيى الرياحي الهلالي، فاستولوا على برقة (443هـ)، ونزلها بنو سليم، وتابع الباقون زحفهم على طرابلس، فأنهى بنو زغبة حكم سعيد بن خزرون (446هـ)، واتجهوا بعد ذلك إلى تونس بقيادة مؤنس بن يحيى الرياحي، فهزموا المعز بن باديس ومن معه من صنهاجة وزناتة، وحاصروا القيروان، فهادنهم ابن باديس، وسمح لهم بدخول المدينة،

فاستولوا عليها، وأجلوه عنها، واستمروا في زحفهم، فنازلوا الدولة الحمادية في الجزائر، وقضوا عليها، وملكوا البلاد، واقتسموا براريها، وأفسدوا حواضرها، ولحق بهم أبناء عمومتهم الباقون في مصر، فأقاموا إقطاعات صغيرة في المغرب، يرأس كلاً منها شيخ من بني هلال أو زناتة، وظلوا كذلك حتى قضت الدولة الموحدية على هذه الدويلات، وضمتها إليها في القرن السادس الهجري. هذه الهجرة الكبيرة زادت من عدد العرب في المغرب، فتم تعريبه؛ إذ أرسلت قبائل هلال وسليم إلى عشائرها في الجزيرة العربية ليلحقوا بهم، فاستجابوا للدعوة، وكونوا جماعات وازنت جماعة سكانها من الأمازيغ، واختلطوا وكونوا شعباً واحداً دينه الإسلام ولغته العربية.

يقول د. عبد الحميد يونس: «وكانت المرحلة في هذه التجربة التغريبة ديار المعز بن باديس الصنهاجي؛ ويتفق كثير من المؤرخين على اتصال العرب الغازين أو المهاجرين بهذه الدولة الزيرية كان وديا أول أمره؛ لأن المعز أراد أن يستظهر بهؤلاء العرب على قبيلة من صنهاجة في داخل إمارته وعلى منافسه في خارجها الذي يمثل الشعبة الثانية من الملك الصنهاجي في القلعة. وهذا هو الباعث الذي دعا العرب إلى التجمع في أرباض حواضره، ولكن المهادنة بينه وبينهم لم تكن لتستمر طويلا على الرغم من إحسانه إليهم وإصهاره إلى أميرهم، فقد أتوا على كل ما تصل إليه أيديهم إطعاما لذواتهم ودوابهم حتى اشتد بلاؤهم، ولم يكن من مدافعتهم بد، فجمع المعز عسكره وعبيده واستنفر عمه صاحب القلعة، وإن كانت بينهما خصومة، فكتب له الكتائب واستغاث ببعض أمراء زناتة فشدوا أزره حتى ليقال إن جيشه بلغ ثلاثين ألف فارس، ويبالغ بعض المؤرخين ويذهب إلى أنهم كانوا نيفا وثمانين ألفا. أما العرب فلم يكونوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، والتحم الفريقان فدارت الدائرة على المعز وجنده، ومنوا بهزيمة منكرة وغنم العرب كل ما كان معهم...».[22]

7- أحداث السيرة

على الرغم من أن أحداث التغريبة محفوظة في سجلات التاريخ، فإن الرواة عددوا في رواياتها ونسجوا ضروبا من الخيال حولها؛ غير أن ما يوحد هذا التعدد في الروايات هو التوجه إلى بلاد المغرب، حيث عزم أبو زيد الهلالي وبعض أبناء الأعيان، وهم مرعي يحيى ويونس؛ على الرحيل إلى بلاد تونس قصد الاستطلاع على منافعها وما يفيد بني هلال من خيراتها.

ورد على لسان الراوي: «فقال: إنني في غاية الاستعداد للذهاب إلى تلك البلاد غير أني أريد أن يكون معي رفاق وأصحاب من سادات الأعراب، لأن المسافة بعيدة ومشقات الطريق شديدة، فقال الأمير حسن: خذ معك من تريد من الفرسان الصناديد، فقال أريد أن آخذ معي يونس ويحيى ومرعي فهم ممن يعتمد عليهم

22- يونس (عبد الحميد)، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مركز الدراسات الشعبية، القاهرة 2003، ص ص 58-59

في الطريق...»[23]. يمثل هذا المقطع وظيفة أولى في السيرة، وهي وظيفة الابتعاد أو الرحيل، كما حددها بروب في كتابه مورفولوجية الخرافة؛ فالوضعية المزرية التي أصبح يعيش عليها بنو هلال هي التي حتمت عليهم اختيار أبي زيد للقيام بهذه الوظيفة؛ أي الابتعاد عن مضارب بني هلال للبحث عن مكان يضمن لهم عيشا هنيئا، ولما وقع اختيارهم على بلاد تونس، كانت المهمة من نصيب أبي زيد بمعية رفقة من أعيان القوم، وهنا تأتي الوظيفة الثانية، وهي التحري قصد الإخبار، ولإتمام هذه المهمة تنكر الأشخاص في هيئة شعراء يجولون البلدان ويمدحون كبار القوم، يقول الراوي: «وصل أبو زيد أخيرا ورفاقه إلى مكة فصلوا في المسجد الحرام، وداروا حول الكعبة، ثم غادروها إلى العراق، حيث مثلوا بين يدي الحاكم ومدحوه، فأجزل لهم العطاء وأكرمهم غاية الإكرام ومضوا في مسيرتهم حتى بلغوا دمشق الشام، فأقاموا فيها أياما، ثم توجهوا إلى بيت المقدس، حيث اقاموا يومين كاملين، ومنها ساروا إلى غزة... ثم إلى مدينة العريش، وكان يحكمها البردويل بن راشد...فمدحوه بالأشعار والقصائد، وأقاموا عنده ثلاثة أيام في الإكرام ثم ودعوه وجدوا في قطع البرية حتى وصلوا إلى مصر...فقصدوا ملكها الفرمند بن متوج ودخلوا عليه ومثلوا بين يديه، ومدحوه بالأشعار فالتقاهم بالترحيب والوقار، وأقاموا عنده ثلاثة أيام، وساروا قاصدين بلاد الصعيد وبلاد المغارب...».[24] ففي هذا المقطع يقدم الراوي مجموعة من العوامل المساعدة، والممثلة في الشخصيات التي قامت بالترحيب بهم وإكرامهم، وبالتالي سهلت مهمة أبي زيد ورفقته حتى لا يتوانوا عن قطع المسافات لإنجاز المهمة التي أنيطت إليهم وبلوغ قصدهم؛ أي بلاد تونس.

وبالفعل استطاع الأبطال بلوغ بلاد تونس، حيث دخلوها وانبهروا بما فيها من خضرة وجمال طبيعي، غير أنهم وقعوا في ما للم يتوقعوه حيث كان فرسان الزناتي خليفة يترصدون لهم لأنهم علموا بأمر الوافدين من خلال طقوس ضرب الرمل، وبعد مواجهة شديدة بينهم وقع أبو زيد وأصحابه في أسر أهل الأرض، ما جعله يميل إلى إعمال الحيلة والتنكر وهي الوظيفة التي اتبعها أبو زيد حين سئل من أنتم؟ يقول الراوي: «فقال ابو زيد: إننا شعراء من بلاد الشرق وعادتنا أن نمدح الأمراء وأكابر الخلق وسمعنا بكرم الزناتي خليفة وما خصه الله به من الشمائل اللطيفة فقصدناه من بلاد بعيدة لأجل هذه الغاية الوحيدة وكان وصولنا مساء أمس فبتنا في هذا المكان من حيث إننا غرباء ولا نعرف أحدا إلى أن أشرفتم بجمعكم علينا وأوصلتم أذاكم إلينا بدون أن نعلم المقصود وأنا اسمي محمود واسم جماعتي شداد وجماد ومسعود...».[25]

تبرز إذن، وظيفة الحيلة والتنكر التي تبناها أبو زيد، ويظهر ذلك جليا في كلامه ومن خلال تغيير الأسماء، غير أن فطنة أهل البلد وذكاءهم كشف حيلتهم، ما سيعرضهم لحالة النقص والإساءة، حيث أسرهم

23- تغريبة بني هلال، ص 16
24- التغريبة، ص 23
25- نفسه، ص 25

وتجريدهم من أسلحتهم، يقول الراوي: «فقال له العلام: لقد كذبت في المقال، وتكلمت بكلام المحال ما أنت إلا الأمير أبو زيد صاحب المكر والكيد، وأما رفاقك فهم مرعي ويحيى ويونس، وقد أتيتم إلى البلاد لتدرسوا أحوالها وقوتها قبل الهجوم عليها».[26] وزادهم الحال سوءا حين قُدموا أمام الزناتي خليفة أمير تونس، وذكر له فرسانه ما فعله أبوزيد وأصحابه، وعلى الرغم من أن ابا زيد ما يزال مصرا على تنكره وحيلتهن إلا أن الزناتي عزز موقف وفرسانه ورد عليهم بقوله: «يا مناجيس ما أنتم إلا جواسيس أتيتم لتدوروا البلاد وتعرفوا أحوال العباد ثم تذهبوا وتأتوا بالعساكر والجند الوافر فتملكون بلادنا وأراضينا وتتحكمون بمجموعكم فينا، هذا هو السبب الذي قادكم إلينا وحملكم على القدوم والهجوم علينا، فلا بد من قتلكم يا أوغاد على رؤوس الأشهاد جزاء على هذا وتكونوا مأكلا للوحوش الكاسرة».[27] وحين تقرر قتلهم، وأن الإساء لا حقة بهم لا محالة- يتدخل عنصر الإغاثة ليقدم يد العون لهم، وهي وظيفة المانح التي أناطها الراوي للأميرة سعدى بنت الزناتي، والتي علقت حبا وشغفا بمرعي، إذ ساعدت تيمة الحب والعشق على تخليص الوافدين من الأسر والقتل، ليتغير مسار السرد وتقلب الأحداث، ويتقلد أبو زيد مهمة جديدة وهي الذهاب مقابل العودة؛ أي الرجوع إلى الوطن والعودة من جديد قصد تحرير الفرسان الذين بقوا رهينة في عهدة سعدى. يقول الراوي على لسان الزناتي: «إذا أطلقناك إلى أن تأتي جماعتك من الأوطان فكم تغيب عنا؟ قال: أغيب ثلاثة شهور وأجيب لك ألف درع مشهور؛ فقال: وما هو مرادك من المدرع أيها البطل الصميدع؟ فأخرج الأمير أبو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخالص وأنقى من فضة الروباض، وقال: هذا هو المدرع يا زينة الممالك، ففرح الزناتي بذلك، وقال: اذهب بأمان إلى الأوطان.»[28]

ويبدو أن أبا زيد ما يزال على إعمال الحيلة وتوظيف تيمة الطمع التي ستسهل له الإذن بالانطلاق نحو وطنه، وهو ما تحقق فعلا، ومن ثمة تتجه الأحداث وجهة معاكسة يمكن نعتها بتشريقة أبي زيد؛ أي توجهه نحو الشرق مرة أخرى، ويمكن تسطير ذلك في الترسية التالية:

من الشرق (أبوزيد+ الرفقة) ---------- إلى الغرب (تونس: أبو زيد + الرفقة)

من الغرب (تونس: أبوزيد) ---------- إلى الشرق (نجد: أبوزيد)

وتبين الترسيمة أن هذا التحول لم يكن باختيار أبي زيد، وإنما فرضته عليه الحالة التي أصبح عليها، وهو لا حول له أمام فرسان الزناتي، سيما وأنه مجرد من أسلحته،

26- نفسه، ص 25
27- نفسه، ص 26
28- نفسه، ص 28

غير أن التعاقد الذي تحقق بين الطرفين ساعد أبا زيد على الانتقال مرة أخرى، ما ساعده على التحري وجمع ما يكفي من الأخبار عن بلاد تونس، وظل يتنقل بين مدائن البلاد ويقطع البلدان حتى وصل بلاد نجد، يقول الراوي: «وأما أبو زيد فقد مضى يجد السير من حلب في طريقه إلى نجد، حتى وصلها بعد خمسين يوما...وتوجه توا إلى صيوان الأمير حسن حيث عليه الناس من كل جانب...وبعد أن أخذ لنفسه بعض الراحة، راح يقص على الجميع ما جرى له من الحوادث، وكيف أنه ترك الأولاد في تونس عند سعدى، وطمأن الجميع على سلامتهم، ووصف لهم الأرض ومن فيها من القوم، وما تحويه من الخيرات...»[29]

ويمكن القول، إن أبا زيد أدى وظيفة الإخبار بامتياز، على الرغم مما لقيه من متاعب وصعوبات سواء في الطريق أو في مواجهته لفرسان الزناتي، وكان بإمكان الراوي أن ينهي حكيه عند حدث الأسر وقرار القتل، لكنه تعمد منح السرد عمرا أطول يسعف على نسج أحداث أخرى جديدة تثري السيرة، لذلك عزم على توظيف تيمة العشق التي أبانت عنها سعدى تجاه مرعي، وتدخلها لدى والدها لتعنى بأمر مرعي وأصحابه، وبالتالي منح فرصة جديدة لأبي زيد، كي تبدأ الأحداث من حيث بدأت. ويتم تبادل الوظائف، ليقوم بوظيفة الابتعاد والرحيل هذه المرة الأمير حسن، والوظيفة هنا ليس من باب التحري والإخبار، ولكن من باب إعلان الحرب وتحرير شباب بني هلال، يقول الراوي: «وأمر الأمير حسن بدق طبل النفير العام فدق الطبل في الحال، واجتمعت الفرسان والأبطال وسادات الرجال، ودخلوا على الأمير حسن بن سرحان، وهو في الديوان، فأخبرهم بما جرى، وقال لهم: استقر رأينا أن نرحل من الأوطان ونقصد بلاد الغرب بعد ستة أيام، فكونوا في الاستعداد التام لأن أرضنا قد امحلت ووقع بنا الفلا وأولادنا في أسر الزناتي خليفة يقاسون العنا...»[30]

إن ما حرض الأمير حسن على اتخاذ قرار الرحيل هي عوامل ذاتية وموضوعية؛ فالذاتية تتجلى في السعي إلى تحرير الفتية، والموضوعية تظهر في ظروف الطبيعة التي لم تعد تساعدهم على العيش في البلاد، وهو ما حفزهم على تحريك قواهم البشرية لإيجاد بلد أفضل يضمن لهم العيش الرغيد، فكان اختيارهم بلاد تونس. فإذا كانت رحلة أبي زيد رفقة الفتية إلى تونس بغية التحري مرحلة بدئية، فإن تحريك الأمير حسن فرسانه وقبيلته يمثل مرحلة ثانية استهلها الراوي بأحداث جديدة تؤسس للتغريبة حيث سيتضامن بون هلال ويتكاثفون لمواجهة كل الصعاب التي قد تعترضهم في الطريق، ولعل أول إساءة واجهتهم في طريقهم هي ما كان من الدبيسي بن مزيد الذي أخبره رعيانه بنزول بني هلال مضاربه، ولما استدعى وزراءه أشاروا عليه أن يطالبهم بعشر ما يملكون، ولما بلغ الخبر الأمير حسن، رد على الدبيسي بكياسة وليونة فتحت شهية المعتدي بلغة بروب، وهي حيلة عمدها الأمير باستشارة مع بني جلدته وفرسانه، حتى يعدوا العدة لمواجهة

29- نفسه، ص 29

30- نفسه، ص 30

الدبيسي، وهو ما حدث فعلا، وقد واجه الدبيسي بني هلال مواجهة شرسة، أوقعت فرسانهم أسرى لديه، ولم يتمكنوا من إخلاء سبيلهم إلا عن طريق الحيلة، حيث تنكر أبو زيد في صورة درويش من دراويش زمانهم، يقول الراوي: «ثم إنه غير زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الأخضر ووضع طيلسانا على رأسه حتى لم يعد يعرفه أحد، وقصد الملك الدبيسي ودعا له بالعز والانعام وكان كلامه معه بالفارسية...فلما رآه الدبيسي على تلك الصفة ظن أنه من دراويش الأعجام فاحترمه غاية الاحترام، وقال له: من اين أتيت يا ابن الأجواد؟ قال: من مدينة بغداد، وإني من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآثر...»[31]

واستطاع أبو زيد بحيلته وتنكره اختراق ديوان الدبيسي، بل دخل السجون وحرر فرسان بني هلال من الأسر، الأمر زاد من غضب الدبيسي، وزاد من قبضته عليهم حتى أسر فرسانا آخرين أثناء القتال والمواجهة، ما وضع بني هلال في حالة حرجة لم يخرجهم منها سوى أبي زيد الذي قرر مواجهة الدبيسي وقتله، وبهذا استطاع بنو هلال أن يحققوا الانتصار، يقول الراوي: «نزل له ابو زيد الهلالي، وحاربه حربا لم يشاهد الدبيسي مثلها في حياته، وأخيرا تغلب أبو زيد عليه وقتله بطعنة رمح نفذ من صدره إلى ظهره، فلما شاهد رجاله ما حل بملكهم أسرعوا إلى الهرب، وإلى المدينة توجهوا، فتبعهم بنو هلال يضربون فيهم ويقتلون، حتى ألقى جماعة الدبيسي السلاح واستسلموا للمنتصرين بدون قيد ولا شرط...».[32]

لم يتوان بنو هلال عن مسيرهم، بل عزموا على إكمال طريقهم حتى دخلوا بلاد العجم، والتي كان يحكمها سبعة ملوك منهم: الخرمند، وعلي شاه، والصليصل، والمغل ومنذر المنذر، والنعمان، كما ورد على لسان الراوي، وقد طمع هؤلاء في غنائم بني هلال وفي نسائهم بعد أن نزلوا أراضيهم، وقد اتفق الملوك بداية على أن يطلبوا منهم عشر ما يملكون، غير أن رد بني هلال كان بالرفض، وفضلوا القتال على الاستجابة لمطالبهم، ليشتبك الفريقان ولحقت الإساءة بالطرفين، مثل أسر مارية بنت القاضي بدير، أو قتل فرسان من العجم، وازدادت مواجهة الهلاليين حين دخلوا بلاد التركمان وكان يحكمها ملك اسمه الغضبان، فلما سمع الأخير بنزول بني هلال قرر الطلب نفسه أي عشر ما يملكون، ولكن الرد كان نفسه، والسيف هو الفيصل بين الفرسان، ما دفع الغضبان إلى الهجوم والدخول في عراك قوي واجهه أبطال بني هلال؛ أبو زيد وذياب..؛ بقوة أقلقت الملك الغضبان، واستمرت المعارك يتبادل فيها أبطال بني هلال أدوار المواجهة والقتال تجاه فرسان الغضبان، الذي كانت نهايته على يد ذياب بن غانم. وهكذا يتحقق انتصار آخر يضاف إلى انتصارات بني هلال.

انطلق بنو هلال يواصلون مسيرهم، حتى دخلوا بلاد العراق وكان فيها حاكم يدعى الخفاجي عامر، والذي سيعزز مسيرهم بعد أن قام بضيافتهم وإكرامهم، خصوصا حين أبلغوه أن مرادهم ليس الإقامة في

31- نفسه، ص ص 36-37

32- نفسه، ص ص 37-38

أراضيه، بل هم في رحلتهم إلى الغرب، الأمر الذي أثلج صدر الخفاجي عامر، وزادت علاقته ببني هلال قوة ومتانة، بل كان عاملا مساعدا في تعزيز بني هلال أثناء مسيرهم؛ غير أن هؤلاء لم يخلصوا من دائرة اعتداء حتى يدخلوا في أخرى، حيث قرر التمرلنك حاكم الموصل الاعتداء عليهم وسلب أموالهم، يقول الراوي: «ولكن التمرلنك كان قد قرر التعدي والعدوان، فرد على بني هلال طالبا عشر أموالهم وعشر بناتهم ونسائهم أيضا..»[33] ما أدى إلى المواجهة والدخول في الصراع، حتى انتهى الأمر بمقتل التمرلنك، يقول الراوي: «وإذا الأمير حسن يدركه وفي يده السيف ويقطع راس التمرلنك، فعندها مال العرب على العجم وفتكوا بهم بالسيف فما سلم إلا كل طويل عمر...»[34]

وهكذا ظل بنو هلال يواجهون الاعتداءات ويردونها عنهم بقوة السيف مبرزين بطولاتهم وشجاعتهم، وتكررت حروبهم ومعاركهم في كل منطقة حلوا بها، فمن التمرلنك إلى الخزاعي في بلاد حلب وحماة، وقد سمع الملك الهراس ملك قبرص بقوة بني هلال وشجاعة ذياب؛ فأمر بإحضاره أسيرا، وهو ما تحقق فعلا حيث وقع في خدعة التجار المزيفين، وحملوه في سفينتهم إلى الملك الهراس مكبلا، حيث يعاني ذياب نقصا، ولا يستطيع المواجهة والدفاع عن النفس، بل هو في حاجة إلى تدخل ومساعدة، وهنا يتدخل أبو زيد متنكرا في صورة الراهب سلامة قصد تخليص ابن عمه ذياب، وعلى الرغم من محاولة الراهب الحقيقي كشف حقيقة أبي زيد، غير أن الأخير بفطنته ومكره استطاع أن يتخلص من راهبهم وبالتالي يحرر ذياب، بعد أن قام بقتل الهراس.

ولما وصل بنو هلال الشام، تنكر أبو زيد وذياب ومن معهم في هيئة شعراء يجوبون البلاد، وقصدوا شبيب حاكم الشام، فأعجب بشعرهم وأكرمهم، غير أنه اكتشف حيلتهم وأوقعهم في الأسر، وسرعان ما نفك منه أبو زيد وصحبه بفعل فطنته وقدرته على الدهاء والتخلص من المكائد. ومن الشام توجه بنو هلال إلى العريش، ولما سمع بهم البردويل قرر محاربتهم، فواجه بني هلال وقاتلهم بشدة؛ غير أن أبا زيد استطاع أن يتغلب عليه وينكل به حتى قتله، وختم على قصره.

وظل الهلاليون على حالهم قاصدين بلاد تونس، على الرغم مما واجهوه من حروب ومكائد، وقد استطاعوا التغلب عليها حتى بلغوا البلاد المنشودة؛ أي تونس، وهنا يزيد الحكي قوة وتشويقا، وتشتغل الحبكة بكل تقنياتها، والتشويق بكل أساليبه، وفق وظائف تبرز وتختفي بفعل بطولات بني هلال تجاه الخليفة الزناتي، فوظيفة العودة التي جسدها حضور أبي زيد من جديد رفقة الهلاليين ستمنح السرد مساحة شاسعة لنسج الأحداث القائمة على التشويق والعقدة والإيغال في الوصف، إذ لم يكن خليفة الزناتي سهل المنال بالنسبة إلى الهلاليين؛ بل واجههم مواجهة شرسة وأبان عن قوته وشجاعته في الدفاع عن بلده، ولكن سياسة

33- نفسه، ص 58

34- نفسه، ص 61

التناوب على القتال كانت تقنية انتهجها الهلاليون لإضعاف فرسان الزناتي، ويبدو أن سعدى ابنة الزناتي لعبت دورا كبيرا في دفع والدها إلى القتال حتى يقتل، لأن شغفها أنساها رابطة الأبوة، ففضلت حياة مرعي على حياة والدها؛ يقول الراوي على لسان سعدى: «مستعدة لتسوية هذه المشكلة، ولتعلم أن الذي يقتل أبي هو الأمير دياب لا أحد غيره...»[35]

وبعد مقتل خليفة الزناتي على يد ذياب بن غانم، قرر الأمراء تقسيم البلاد، بعد اجتماع حسن وذياب وأبي زيد؛ يقول الراوي: «وفي اليوم التالي ركب الأمير حسن وأبو زيد مع جماعة من الفرسان وتوجهوا نحو ذياب وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إليه فطيبوا خاطره وسلموا عليه فتلقاهم بالترحاب والإكرام ...فشكره الأمارة على استقباله، وبقوا في ضيافته ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قال حسن لدياب:

مرادنا نقسم بلاد المغرب؛ فقال دياب: الأمر لأبي زيد؛ فقال أبو زيد: مرادكم قسمة بلاد الغرب ولكن قدامكم مصاعب...»[36]

ولعل في قول أبي زيد أن مهمتهم لم تنته بعد، وأن أمامهم حروبا ومعارك أخرى ليس بالسهلة، لأن بلاد الغرب كبيرة وشاسعة وفيها ممالك أخرى ترغب في الانتقام للزناتي. فالحروب لم تتوقف بل ظل بنو هلال في قتال وعراك، وهم يجوبون بلاد الغرب بفرسانهم ورجالهم، فبلغوا طنجة وكمراكش وقلعة الأندلس وغيرها من المناطق.

ولأن الحرب لم تؤت أكلها للزناتي وأتباعه، وكان مآله الهلاك ومن تبعه من الأنصار والأتباع، ولم يستطع أحد إيقاف قوة بني هلال، كان للحيلة دورها من جديد، حيث قررت زعيمة أخت الزناتي الانتقام لأخيها، وتشريد بني هلال كما شردوا أهلها، لذلك عملت على نشر الفتنة بين أبناء العم الهلاليين، يقول الراوي على لسان زعيمة: «يا قوم لقد فقدنا أخي الزناتي والعلام والجابلي بن مقرب وفتح بنو هلال الفتوحات وملكوا السبعة تخوت بعد الغرب، وما تركوا ملجأ نسكن فيه...لقد أحزنني موت سعدى ابنة أخي وكسرت ظهري، وكانت كل أملي فيها أن تعزنا وتكون ملجأنا، فالآن مرادي أتوجه إلى بلاد بني هلال وأرمي بينهم الفتن.»[37]

لقد حركت انتصارات بني هلال الحقد والرغبة في الانتقام لدى من تبقى من أسرة خليفة الزناتي، ونقصد بذلك زعيمة التي عزمت على التسلح بالمكر والخديعة قصد زرع الفتنة بين بني هلال وكسر شوكتهم التي لم يقو عليها أحد بالسيف. لذا يمكن القول إن زعيمة ركبت مركب المسيء بغية الانتقام، وعزمت على

35- نفسه، ص 134
36- نفسه، ص 147
37- نفسه، ص 169

إلحاق الإساءة ببني هلال، حيث أذكت نار الغيظ والكراهية بينهم، خصوصا بين حسن وذياب، وعلى الرغم من الدور الذي لعبه أبو زيد في صلح الأميرين؛ إلا أن نار الفتنة اشتعلت، ولم يستطع أحد إيقاف لهيبها؛ وهنا ينحو الحكي منحى آخر، بدت فيه معالم البطولة المضادة، يقول الراوي: «ولكن الأمير ذياب غضب لما عرضوا عليه القضية، وأخبرهما أنه لم يطلب الزواج بها كما تدعي، وأنها امرأة خائنة والتي تخون والدها لا أمان لها...ولما حاول حسن أخذها رفض ذياب، وكادا يشتبكان فتدخل أبو زيد وأوقفهما...عرض عندئذ ذياب على الرجلين أن يضعا سعدى في آخر الميدان ومن سبق إليها كانت له، فرضيا، وتم السباق وسبق ذياب، ولما وصل إلى سعدى ضربها بالسيف فماتت...وجن مرعي لما علم بموتها ومزق ثيابه أسى وحسرة..»[38]

ولم يقف الصراع بين الأميرين عند هذا الحد، بل امتد إلى تخريب ما يملك كل واحد مثل ردم الآبار وهدم الأسوار وتكسير الأشجار وحرق المزارع، الأمر الذي زاد من الغضب والتوتر والحقد، وأصبحت قيم الشهامة والأنفة والمروءة والعزة والتضامن التي كانت ركائز أساسية في البطولة، تختفي وتحل محلها سلوكيات الحقد والغضب والتوتر والانفعال، والتي تؤسس لبطولة مضادة ستنهي قوة بني هلال وتكسر شوكتهم؛ وهو ما حدث فعلا، حيث قتل ذياب الأمير حسن، وهرب من البلاد، لكن أبا زيد، وإن تأثر بقتل الأمير حسن وحزن عليه كثيرا، قرر في نفسه قتل ذياب، لكن حفاظا على قوة بني هلال تراجع، وقرر الصلح مع ذياب، الذي لم ينل من الملك شيئا، ما زاد في نفسه الضغينة والحقد تجاه أبي زيد، وظل يترصد لأبي زيد حتى قتله غدرا. ما أثر في نفوس بني هلال واشتد الغيض وكثرت الرغبة في الانتقام، حيث قرر أبناء أبي زيد الانتقام لأبيهم، فقتل مخيمر ذياب ضربا بالرمح، لتكون نهاية الأبطال الثلاثة، الذين عرفوا بتوحدهم وتضامنهم لولا الفتنة التي أودت بهم.

تلك إذن باختصار أهم الوظائف التي برزت في مضمون السيرة، وهي وظائف تؤسس للبطولة من جهة، انطلاقا من الرحيل والتحري والنقص والمنح والانتصار والمعاقبة، والبطولة المضادة من جهة ثانية، انطلاقا من الخدعة والإساءة والاعتداء والمعاقبة. ووفق هذه المعطيات يمكن اختزال مراحل السيرة في ثلاث تأتي كالآتي:

مرحلة الرحلة الأولى: وتؤسس لوضعية بدئية، تضمنت تكليفا خص به الأمير حسن أبا زيد الهلالي لما عهده فيه من شهامة وشجاعة قصد اكتشاف بلاد تونس، غير أن أبا زيد اشترط على الأمير حسن بعض الرفقة يرافقونه بسبب أهوال الطريق ومشاقها، وهكذا انطلق أبو زيد وأبناء أخته يونس ومرعي ويحيى إلى بلاد تونس، يقول الراوي: «وكانت جميع النساء والبنات والأمراء والسادات تدعو لرب السماوات في أكثر الأوقات وتطلب منه نجاح أبو زيد في تونس ورجوعا سالما إلى الديار مع مرعي ويحيى ويونس...»[39]

38- نفسه، ص 168

39- التغريبة، ص 16

مرحلة مسير بني هلال: جاء في السيرة: «ولما انتهى من هذا المقال، التفت الأمير حسن إلى الحاضرين والسادات المعتبرين وقال لهم: مرادي الرحيل إلى بلاد المغرب، وأقيم هناك الحرب وأخلص الأمراء بالطعن والضرب...»[40]

وفيها واجه بنو هلال مشاق وصعوبات تارة وانتصارات وبطولات تارة أخرى، وفي هذه المرحلة تؤسس السيرة لتجليات البطولة الهلالية من خلال قهرهم لكل من اعترض سبيلهم. ويمكن عرض مسيرهم وما واجهوه فيه من حروب وما غنموه من غنائم، انطلاقا من العناوين التي سطرها كاتب التغريبة أثناء حكيه عن هذه المرحلة، وتأتي هذه العناوين كالآتي:

*- بنو هلال في الحرب والقتال؛ في بلاد العجم - معارك وحروب في طريق بني هلال - الأمير دياب في الأسر- بنو هلال في الشام- الطريق إلى مصر - بنو هلال والزناتي - حروب بني هلال مع الزناتي - الساعات الأخيرة للخليفة الزناتي - أبو زيد الهلالي ومعاركه ومغامراته في بلاد المغرب.

المرحلة الثالثة: وتؤسس للبطولة المضادة، حيث انقلب بنو هلال على بعضهم، ما أدى إلى تفكك وحدتهم وانهيار قوتهم. وكان المؤشر الأول لهذا الانقلاب على بعضهم هو الفتنة التي انتشرت فيما بينهم، حيث عزت زعيمة أخت الزناتي خليفة على نشر هذه الفتنة، يقول الراوي: «لقد انتهت قصة بني هلال، فاقتسم الأمراء الثلاثة المغرب واستقروا فيه، وأزالوا الأمراء السابقين، وحلوا محلهم، وراح كل واحد منهم يتصرف في حصته من الأرض تصرف الحاكم المالك، ولكن زعيمة أخت الزناتي لأم يرضها هذا الحال ولا قبلت بالأمر الواقع»[41]؛ وبدأت الفتنة تدب بين أبطال بني هلال، فكان الخلاف على ابنة خليفة الزناتي، ثم الغنائم، ثم كيد المكائد في ما بينهم، خصوصا بين دياب والأمير حسن؛ يقول الراوي: «وقالوا كلهم: الحق على دياب فهو غدار، وما علاج الغدار إلا ضرب البتار»[42]، وهكذا رفع بنو هلال السيوف على بعضهم ودخلوا في عراكات أودت بهم إلى القتل، حيث قتل دياب الأمير حسن، وفر مع جماعته بني زغبة من بني هلال، ما أذكى نار الفتنة، واجتمع الحزن على فقد الأمير والرغبة في الانتقام له، يقول الراوي: «وكانوا يندبون أميرهم ليلا ونهارا، ويقدمون المراثي أشعارا، وكنت ترى العربان تأتيهم من كل مكان يعزونهم بفقد الأمير حسن، ولما انقضت أيام المناحة وسكن روع الناس، اجتمعوا في صيوان الأمير أبو زيد وقالوا: «يا أمير بني هلال ماذا تأمر أن يصير بأخذ ثار الأمير حسن، فإننا والله لا نرتاح ولا نكف عن البكاء والنواح ولا تبرد قلوبنا الجراح، ولا يجتمع نساؤنا بنا في الأطناب...إلا أن نأخذ لهم بالثأر ونرفع عنهم المذلة والعار وتقتل دياب بن غانم ومن معه ونجعل آل غانم مشتتين في كل الأقطار لا يقر لهم قرار ونذبح فيهم الكبار

40- نفسه، ص ص 29- 30
41- التغريبة، ص 169
42- نفسه، ص 171

والصغار حتى لا يبقى منهم أحد ونجعلهم عبرة لمن اعتبر...».[43] لقد أدت الرغبة في الثأر إلى تفكك وحدة بني هلال، وانقسموا بين مؤيدين لأبي زيد، معارضين لدياب، والعكس كذلك، وظلوا يتربصون ببعضهم حتى قتل دياب أبا زيد، وانتقم أبناء ابي زيد من دياب، وهكذا انتهت أحداث السيرة، وظل المثل الشائع يتردد على ألسنة الناس حتى يومنا هذا «**وكأنك يا بوزيد ما غزيت**».

8- تقييم وتركيب:

على ضوء ما تقدم من مراحل، تنهض السيرة على حقول معجمية، يمكن اختزالها في حقلين كل واحد منهما يتضمن وحدات معجمية دالة:

1- **حقل البطولة**، وهو حقل تعبر عنه ألفاظ، مثل:

الاستعداد للذهاب، الرحيل، الفرسان، الفارس الصنديد، الرمح السيوف، الكرم الأنفة، الشورى، المواجهة، العراك، الانتصار...

2- **حقل البطولة المضادة**، وهو حقل تعبر عنه ألفاظ، مثل:

الغضب، الحيلة، الغدر، ردم الآبار، حرق المزارع، كسر الأشجار، القتل، الضغينة، القتل...

ويمكن تسطير الحقلين المعجميين في الخطاطة التالية، وفق الآتي:

البطولة: شوكة بني هلال قوية: قهرت كل من حاول اعتراض سبيلهم بقوة السيف	البطولة المضادة: انكسار شوكة بني هلال: الضغينة والتناحر في ما بينهم بسبب الفتنة
حالة إيجابية= التضامن	حالة سلبية= التفكك

نستنبط من هذه الخطاطة وفق ما ورد في السيرة أن الفتنة أقوى من السيف؛ وفق المتراجحة التالية:

السيف والتضامن = قوة < التفكك

الغضب والتوتر = التفكك > القوة

43- نفسه، ص 172

لهذا ارتبطت البطولة بالقوة، فيما دل التفكك عن البطولة المضادة، وهو ما يضعنا أمام بطلين؛ بطل وبطل ضحية بلغة فلاديمير بروب، البطل أبو زيد الهلالي، والبطل الضحية الأمير حسن.

لقد أكسب تطور الأحداث وتغيرها السرد لذة ومتعة في السيرة، وذلك لما فيها من حقائق تاريخية ثابتة تشد انتباه المتلقي من جهة، وتفتح أفق انتظاره لبناء عوالم ممكنة. ولعل الراوي كان يحرص أن تكون تقنية التشويق بارزة في هذا المتن الحكائي، انطلاقا من بنية البناء التي تجسدها تيمة البطولة وحتى بنية السقوط التي تمثلها بينة السقوط، وفق خط تسلسلي يتداخل فيه الزمان بالمكان كعنصرين أساسيين في بناء السرد وبلورته، حيث حرص الراوي على توثيق قيم البطولة التي جسدتها شخصيات بنو هلال، وهم الأمير حسن الذي يجمع بين القيادة والإمارة والفروسية، وأبي زيد الهلالي الذي نعته الراوي بنعوت جمعت بين الشجاعة والشورى والحيلة، وذياب بن غانم الذي جمع في شخصيته بين البطل الشجاع والبطل المضاد.

وعلى ضوء هذه المواصفات، حرص راوي السيرة على سرد أكبر عدد ممكن من الانتصارات التي أحرزها بنو هلال، مبرزاً مدى تعاونهم وتضامنهم وتكافلهم تحت إمرة أميرهم حسن.

ويبدو أن الوظائف التي سلف استجلاؤها في السيرة من (اعتداء – تحدي – إخبار – تنقل – إساءة – مطاردة – خدعة – صراع – انتصار – بطل ضحية – بطل باحث –...) هي وظائف كشفت عن تطور حدثي، انطلق من المواجهات التي دخل فيها بنو هلال، ومضى هذا التطور الحدثي بالوظائف الوسيطة ليبلغ إلى وظيفة الصراع بوصفها القيمة الثابتة في حل عقدة الصراع القائم بين بني هلال ومن وقف في طريقهم، فكان الحل هو إنهاء كل معترض أو معتدٍ عبر وظيفة العقاب (PUNITION)، لأن العقاب بالموت هو وسيلة لإصلاح الإساءات وتحقيق الاستقرار المنشود.

وعلى الرغم من تتبعنا لأحداث السيرة وفق المنهج التعاقبي الذي حدده ف. بروب في عدد من الوظائف، فإن غريماس اختزل هذه الوظائف في نموذج بديل أسماه بالنموذج العاملي، ويتلخص في ستة عوامل، هي الذات – الموضوع – المساعد – المعيق- المرسل – المرسل إليه.

وإذا ما حاولنا اختزال أحداث السيرة وفق هذا النموذج العاملي، فإنه سيقدم لنا ترسيمة تحدد العناصر التي كان لها حضور بارز في السيرة، وتتوزع العناصر الأخرى بين المساعد والمعيق وفق الخطاطة الآتية:

المرسل (الأمير حسن) ---------- المرسل إليه (بلاد تونس).

الموضوع: اكتشاف البلاد قصد الاستقرار فيها

الذات: (أبو زيد الهلالي)

المساعد للذات البطلة: الفتية المرافقين (يحيى ومرعي ويونس)

العامل المعيق: المعترضون لسبيل بني هلال

والجدير بالإشارة، هو أن الراوي تحكم في أحداث السيرة بتحويله بعض العناصر المعيقة إلى عناصر مساعدة، مثل سعدى بنت الزناتي، التي باتت تمد يد العون لأسراها أولا، وبني هلال ثانيا.

ويمكن النظر إلى أحداث السيرة من منظور النموذج العاملي في شكل ثنائية محددة، تمثلت في البطولة والبطولة المضادة، والتي يرمز إليها بالذوات التالية:

البطولة= الأمير حسن + أبو زيد الهلالي+ ذياب بن غانم+ فرسان بني هلال

البطولة المضادة= وتسير في اتجاهين:

أ- بطولة الزناتي خليفة بالسيف وبطولة زعيمة الزناتي بالحيلة والخداع

ب- الصراع بين أبطال بني هلال، وهم: ذياب بن غانم – الأمير حسن – أبوزيد الهلالي

فإشارة (+) في البطولة تحيل على التضامن والتوحد ما شكل قوة هلالية لا تقهر. أما إشارة (–) في البطولة المضادة فتحيل على النقص والتفكك، ما أدى إلى التجزؤ وتفتيت قوتهم.

وهكذا، فقد ارتكزت السيرة على مسارين سرديين متعارضين يقومان على التناقض؛ يمثل المسار الأول انتصارات بني هلال على جميع الفرسان الذين اعترضوا سبيلهم بدءا من الشام والعراق حتى بلاد الغرب، ويمثل المسار الثاني دخول بني هلال في صراع داخلي أدى إلى تفكيك وحدتهم وكسر شوكتهم.

ويمكن القول، إن الراوي تبنى – على ضوء هذا التناقض - أسلوب التشويق كعنصر أسهم في توالد الأحداث وتعاقب الشخصيات داخل المتن السردي.

لقد أسهم النموذجان المذكوران أعلاه (النموذج التعاقبي – النموذج العاملي) في بيان مضامين السيرة من حيث أحداثها وشخصياتها، مما يقودنا إلى تساؤل مفاده: هل يصح الاكتفاء بما ورد في السيرة من حكي أحداث أم تقتضي الضرورة العلمية والمنهجية البحث فيما هو أعمق فيما يخص العناصر المعرفية التي قامت عليها السيرة؟ علما أن هذا الفن يختلف كثيرا، وإن تضمن متنا سرديا، عن الحكاية أو الخرافة، لماذا؟

لأن السيرة فن أدبي يحوي قيما معرفية وتاريخية ثابتة يرويها صاحبها باستعماله للسان، إن لم يكن قد كتبها، لاسيما وأن ما وردنا من سير قديمة، غالبا ما كنا نستمتع بها عبر الرواية واستعمال اللسان، وتحديداً في الحلقات الشعبية التي كان يتجمع فيها الناس حول الحكواتي، فيروي لهم من سيرة عنترة بن شداد، وسيرة سيف بن ذي يزن، وغيرها من الحكايات التي ظلت مادة شعبية تمد الناس بالحكمة والموعظة، وهي غالباً ما كانت توجه الناس في سلوكياتهم، وهو ما يؤسف له اليوم، إذ أصبحت هذه السير في اختفاء مستمر بسبب ظهور القنوات الفضائية وغزوتها للعقل البشري الذي لم يعد قادراً على متابعة أو حتى استيعاب ما تقدمه هذه القنوات، فأصبح الإنسان بعيداً كل البعد عن ثقافته الشعبية وما تحويه من دلالات معرفية وتاريخية.

9- مقام السيرة:

تجدر الإشارة إلى ضرورة ربط أحداث السيرة بمقامها، والمقام على رأي لنفسن، يقوم على خمسة عناصر هي:

1- عنصر الهوية

2- الإطار الزماني

3- الإطار المكاني

4- معتقدات ومعارف المتخاطبين

5- مقصدية الخطاب

**** عنصر الهوية:**

يرتبط عنصر الهوية بالاسم، الذي عادة ما يرتبط بمعنى العلامة والعلم، وهو ما يدل على اسم الشخص، أو الحيوان أو المكان. ويرى الأنثربولوجيون أن لأسماء الأعلام والشخوص والأمكنة، ولا سيما في الخطابات الإبداعية دلالات مقصودة معللة بوظائفها ومقاصدها حسب السياق النصي والذهني والاجتماعي، [44] وبما أن الأمر يتعلق بنص إبداعي فإن دلالة الاسم لا تقف عند ذاته، بل تتعداه إلى مفهوم الشخصية وما تتميز بها من علامات نفسية وقيمية؛ وهو ما نلمسه في السيرة الهلالية، إذ طبعت كل شخصية بمميزات خاصة، كما هو الحال عند أبي زيد الذي عرف بشجاعته ومكره وحكمته وتوازنه، وشخصية الأمير حسن الذي عوف عنه

44- محمد حسن عبد الحافظ، فضاءات التناص "حكاية اليازية والعقيلي" وحكايات السيرة الهلالية، الموروث، عدد2 يونيو 2016 ص 30

الكياسة والاتزان وجودة الرأي، والجازية التي عرفت بجمالها وشعرها وحيلها وما إلى ذلك. غير أن البحث يقودنا إلى الوقوف عند هوية كل شخصية، ما دامت السيرة قدمتها بأسماء مستعارة.

يظهر عنصر الهوية بشكل بارز في السيرة من خلال الشخصيات التي ترددت في مصادر التاريخ، وهي شخصيات حقيقية بعيدة عن كل خيال، وهذه الشخصيات هي:

أ - **الأمير حسن: وهو** حسن بن سرحان بن وبره الدريدي الأثبجي الهلالي، وهو شيخ بني هلال يعود نسبه إلى هلال بن عامر[45]، وبذلك تواترت جميع الروايات ذكر ابن خلدون (وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض، وينسبون في دريد بن الأثبج) كما يذكر ان المستنصر لما بعثهم إلى أفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها فعقد لحسن بن سرحان على قسنطينة. وكان دخولهم إفريقيا في عام 443هـ يقول ابن خلدون: «وأما دريد فكانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعباً بما كانت الرياسة على الأثبج كلهم عند دخولهم إلى أفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم.

ب- **أبو زيد الهلالي: هو** سلامة بن رزق بن نائل من بني شعيثة بن الهزم بن رؤيبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الهلالي العامري الهوازني.

ج- **دياب بن غانم:** ذياب بن غانم يعتبر أحد أبطال الحكايات الشعبية لتغريبة بني هلال من نجد إلى تونس، وهو الذي قتل الزناتي خليفة حاكم تونس وبفضله استطاعت قبيلة بني هلال دخول تونس وبعدها القيروان وغيرها من المدن في المغرب. قتل على يد أحد أبناء الأمير أبو زيد الهلالي، ويدعى مخيمر انتقاما لأبيه الذي قتله ذياب غدرا.

د- الجازية بنت سرحان:

لا شك أن المرأة كان لها حضور قوي في السيرة الهلالية، حيث عدد الراوي أسماء بعض النساء، ومنهن بنت الخليفة الزناتي وأخته، ومنهن نساء بني هلال وعلى رأسهن الجازية بنت سرحان، هذه المرأة التي لعبت دورا بارزا في السيرة، والذي لا يقل أهمية عن دور الرجل البطولي، وذلك بسبب مشاركتها الفعالة، سواء في الرأي أو في الحرب أو في غرس معاني الحب، على اعتبار أن تيمة الحب كانت بدورها حاضرة في متن السيرة ومصاحبة لأحداثها.

45- خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم، مادة هلال بن عامر، الجزء الثامن، دار العلم للملايين، طبعة 15، 2002، ص 91

والجازية الهلالية هي امرأة عربية بنت الأمير سرحان من أمراء بني هلال وأمها هي الأميرة الشماء، وهي أخت الأمير الحسن بن سرحان في تغريبتهم الشهيرة من أرض نجد إلى شمال أفريقيا، عرفت بشجاعتها وقوتها، قاتلت مع أخيها الأمير حسن وأبي زيد الهلالي في العديد من المعارك.

وتعد الجازية واحدة من نساء بني هلال الفاعلات الأساسيات في تغريبة بني هلال المشهورة، اشتهرت بحكمتها ورؤيتها القوية إلى الحياة، فكانت عضوا بارزا في مجلس الشورى لقومها ومجلس حربهم، نظرا لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها وصواب المشورة والحكمة والروية. ومن أجل قبيلتها بني هلال، تركت زوجها الشريف بن هاشم الذي كانت تحبه، والذي أنجبت منه ولدًا اسمه محمد، وقيل ولدين محمد وحامد ولم يغلبها على هذه العاطفة الخاصة إلا العاطفة العامة تجاه قبيلتها؛ والتي تستوجب سفرها معهم إلى تونس لحاجتهم إلى مشورتها وتحميسا لهم على النصر؛ ولذا فارقت زوجها وولدها الذي أحبت، وفارقت رغد العيش معه إلى جفوة الحياة القاسية التي تقوم على النقلة والحرب.

فهذه شخصيات ثابتة تاريخياً، وقامت بدور فاعل في الدفاع عن هويتها وكينونتها، لذلك لا يبدو دورهم الدفاعي غريبا لدى المتلقي، وكل ما ذكره الراوي عنهم في السيرة يعد من الحقائق التاريخية التي عرف بها هؤلاء الفرسان وغيرهم، لأن من شيمهم الشجاعة والأنفة وغيرها من القيم التي استمدوها من الحياة البدوية المشهود لها بشمولية السلوك.

أما **الشخصيات المضادة** في السيرة، فهي كل من اعترض سبيل رحلتهم وطمع في أموالهم، غير أن الشخصية المضادة البارزة في السيرة، هي شخصية الخليفة الزناتي؛ والزناتي هو **المعز بن باديس**، من أهم أمراء بنو زيري، استمر ملكه بإفريقية والقيروان مدة 47 سنة، وهي من أطول الفترات خلال العهد الزيري، إذ حكم ما بين 406ه- 1015 م و453 ه- 106م. وكان ملكًا مهيبًا، وسريًا شجاعًا، عالي الهمة، محبًا للعلم، كثير البذل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسمًا لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه[46].

أما زعيمة، فهي أخت خليفة الزناتي، وهي أخطر شخصية استطاعت أن تقلب الموازين، وتفكك قوة بني هلال، فقد استطاعت أن تفكك وحدة بني هلال ليس بالسيف، ولكن بالحيلة والمكر، إذ تسلحت هذه المرأة بسلاح الخداع والمكر، واستطاعت أن تخرق بيوت بني هلال وتصل إلى أمرائهم، لتخبر الأمير حسن بن سرحان أن دياب حاز أفضل الأراضي من حيث الخضرة والماء والنزهة، كي تزرع الفتنة في ما بينهم،

46- انظر الزركلي، المصدر نفسه، ص 91

وتنهي سلطانهم. وهو فعلا ما تحقق، بعد أن نشب خلاف بين الأميرين، وأمر حسن بإفساد أرض دياب، ورد الأخير بحرق مزارع حسن، حتى اشتد الخلاف وثارت نعرة الفتنة والقتل.

وتجدر الإشارة إلى أن السيرة تضمنت شخصيات أخرى ثانوية، صاحبت الشخصيات الرئيسة، سواء ممن مثلوا البطولة، أو ممن مثلوا البطولة المضادة، ويكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: مغامس - سعيد - عامر الخفاجي- ابنة خليفة الزناتي - مرعي - يونس - يحيى - العلام - القاضي، والشخصيات بالطبع كثيرة.

**** الإطار الزمني:**

تندرج السيرة الهلالية في إطار ما يسمى بالأدب الرحلي، والرحلة في الخطاب السردي الشعبي العربي إطار يشمل عددا من القصص المتوالدة، بل إطارا يسع نصوصا رحلية فرعية أو متواترة، وموتيفة مركبة تنتظم مجموعات من موتيفات التراث والمأثور تحويها أنماط متعددة من السرد الرحلي: الاعتقادي، المعرفي، الاجتماعي، التاريخي، التخييلي؛ فالسرد الرحلي خطابات discoures، ولكل خطاب أنماط، ولكل نمط قوانين.[47]

ويرتبط العنصر الزمني في التغريبة الهلالية بمراحل الرحلة، والتي توزعت عبر ثلاث محطات كبرى؛ لكل محطة زمنها الخاص بها:

زمن الانطلاق في ما يسمى بمرحلة الريادة، والتي انطلق فيها أبو زيد مع أبناء أخته قاصدين بلاد تونس. ويمثل هذا الزمن مرحلة اكتشاف وتعرف.

زمن البطولة، والذي سار فيه بنو هلال يقطعون المسافات بمشاقها وصعوباتها، ويمكن تصنيف هذا الزمن كإطار يؤرخ لتجليات البطولة الهلالية.

زمن التفكك، وهو زمن يؤسس للبطولة المضادة، حيث انقلب بنو هلال على بعضهم، ما أدى إلى تفكك وحدتهم وانهيار قوتهم، وبدت رغبة الانتقام تطفو على أبناء ابي زيد الهلالي.

والنظر إلى الزمن في السيرة بصورة عامة، يمكن توزيعه إلى زمنين؛ زمن عام يعود إلى القرن الخامس الهجري، وزمن خاص يرتبط بالحالة التي آل إليها بنو هلال في بلدهم الأصلي بسبب القحط والجفاف، وتضمن هذا الزمن أزمنة قصيرة تنوعت بتنوع رحلاتهم من مكان إلى آخر، إذ يتضمن كل مكان وصلوه

47- محمد حسن عبد الحافظ، "حكاية اليازية والعقيلي" وحكايات "السيرة الهلالية"، الموروث، ع2، يونيو 2016، ص 33، انظر جيمس كليفورد، مسارات الرحلة والترجمة في زمن العولمة، ترجمة محمد بن ناصر الشوكاني، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2008

زمنا محددا، يقول صاحب التغريبة: «كانت منازل بني هلال في أيامها الأولى وقبل أن تبدأ قصتنا هذه بسنوات عديدة، وفي حوالي القرن الخامس الهجري غزيرة المياه، كثيرة الأعشاب والخيرات، حتى نزلت بها المجاعة، فغاضت آبارها ويبست أعشابها، وذوت أشجارها، ولم يعد للحبوب فيها أثر ولا خبر...».[48]

**** الإطار المكاني:**

يقول الفيلسوف اليوناني برميندس، إن الشجرة لا تبدو لك كما تبدو لي، إذن فالرؤية بالعين لا تمنح الحقيقة التي تحيط بنا كاملة، بل الحقيقة بالإضافة إلى ما سبق، هي كل ما يقدمه الخطابُ اللغوي من قيمةِ إخبارية عن هذه الكائنات والأشياء. يقولُ بوتور: «وليس الآخرون، بالنسبة إلينا، ما رأيناه فيهم بأعيننا وحسب، بل هم إلى ذلك ما أخبرونا به عن أنفسهم، أو ما أخبرنا به غيرهم عنهم، وليسوا كذلك أولئك الذين عرفناهم، بل كل الذين ترامت إلينا أخبارهم. وهذا لا ينطبق على الناس وحدهم، بل ينطبق كذلك حتى على الأشياء والأماكن، كالأماكن التي لم أذهب إليها مثلاً، ولكنها وُصِفتْ لي.»[49]

ومن ثمة، فإن المكان غالبا ما يكون لصيقا بحياة الذوات اليومية، من حيث خبرتها به وإدراكها له، «وكلاهما (الخبرة والإدراك) مرتبط بأزمنة الأمكنة، على نحو يجعل المكان حقيقة معاشة، بصريا أو لمسيا أو معرفيا، تؤثر في الذوات وتتأثر به؛ فالمكان نتاج الذوات المعماري والاجتماعي، وقسم عظيم من الطبائع الثقافية من نتاج المكان وطبائعه»[50]

وإذا ما أمعنا النظر في الأمكنة على المستوى الجغرافي، يتبادر إلى الذهن أن المكان هو فضاء شاسع الأطراف يجمع بين الصحراء والوديان والغابات؛ أي أنه فضاء مفتوح يشمل أمكنة تجمع بين الخضرة والجفاف، وفي ذلك محفز واضح على الرحيل والتنقل والبحث عن المكان الذي يضمن حياة آمنة فيها الماء وكلأ الحيوان؛ ذلك أن حال نجد زمن بني هلال هو الجدب والقحط بسبب الجفاف، وهو حال انعكس على حياة بني هلال، ما اضطرهم إلى البحث عن مكان بديل يضمن استمرارية الحياة، فوقع اختيارهم على بلاد تونس الخضراء. وقد كلفهم هذا الاختيار حروبا دونها المؤرخون وروتها ألسنة العامة على شملته من بطولات وانتصارات. يقول صاحب التغريبة: «وتنقسم بلاد العرب وفاقا لطبيعتها إلى خمسة أقسام: تهامة، والحجاز، ونجد، واليمن، والعروض، وفي الجزيرة مواطن خصبة خصوصا في اليمن وحضرموت والأحساء، وأما الساحا فأرضه وعرة تتخللها التلال والكثبان ولكنها تمتاز بمراعيها وخصبها...»[51].

48- التغريبة، ص 13

49- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت1982 ، ط 2، ص 5

50- الدرمكي عائشة، سيمياء المكان في النص الأدبي، البحرين الثقافية، المنامة، ع68، 2012، ص ص 42-43

51- التغريبة ص 6

والظاهر أن المكان في التغريبة ورد بشكل عام غير خاضع لحدود معينة، ذلك أن رحلات بني هلال لم تتخذ مفهوما جغرافيا تفصيليا للمكان والجهات والمسافات بين الأمكنة؛ فالراوي يختصر في حكيه المسافات بين الأمكنة، ويجعل ذواته تتحرك بسهولة بين الأمكنة المحددة عموما بين الشرق والغرب؛ فمثلا حين مر أبو زيد وأولاد أخته بعامر الخفاجي حاكم العراق، في مطلع رحلة الريادة، لم تتناول التغريبة أية طرق سلكوا، وماهي المدن التي مروا منها أو حطوا فيها، وتونس التي ورد ذكرها في التغريبة لا تمثل الدولة التونسية بحدودها السياسية الراهنة، وإنما هي كناية عن بلدان الشمال الإفريقي أو كناية عن الغرب.[52]

**** مقصدية الخطاب:**

المقصدية تداولياً، الغرض من الخطاب، ومقصدية السيرة هي الإشارة إلى ما آل إليه بنو هلال حين أحاط بهم الجفاف والقحط ولم يعد لديهم ما يمكنهم من الاستمرار في العيش، ما جعلهم يتمردون على هذا الحال، ورغبوا في تغييره عبر نشدان حال أفضل، وإن تطلب ذلك المغامرة والمواجهة، حتى لا يكونوا عرضة للجوع والضياع، لذلك عززوا قوتهم وجمعوا فرسانهم بحثا عما هو أفضل عبر الضرب في الأرض، سواء بالأرجل أو بالسيوف، ولما تحقق هدفهم المنشود في بلاد الغرب، أضاعوه بغلبة الأنا والمصلحة الفردية وحب الذات، حيث تجزأت مصالحهم وتفككت، فتحول موضوعهم إلى سيرة تروى على ألسنة عامة الناس، لتكون عبرة القصد منها أن في الاتحاد قوة، وفي الفرقة ضعف وهوان.

والظاهر أن السيرة لا تقف عند هذا القصد فقط، وإنما تشير إلى الحياة البدوية في نجد، وكيف أن الإنسان العربي البدوي آنذاك قادر على التفاعل مع تحولات الطبيعة، إذ لا يقبل بتسلطها وإن استدعى الأمر حياته، وفي رفضه لتسلط الطبيعة إثبات لذاته واعتزاز بنخوته وأنفته، إذ لا يقبل الهوان ولا المهانة، فقد كان قادرا على مواجهة الطبيعة وأهوالها، فعاش على التنقل والترحال بحثا عن مواطن الماء والكلأ لمواشيه أولا، ومواطن استقراره ثانيا، يقول عمر أبو النصر: «لقد فرضت الجزيرة العربية بحرها وصحراواتها ورمالها وقلة مياهها على العرب من سكانها نوعا من الحياة، كان من الصعب عليهم أن يتحرروا منه أو يفرضوا لأنفسهم نوعا غيره...والأكثرية الساحقة من سكان الجزيرة العربية مجبرة حتما على تكلف الحياة البدوية الخشنة الجافة، لأن الأرض التي تصلح للزراعة قليلة جدا، والمطر المتقطع الذي ينزل تارة هنا وتارة هناك، يفرض على الرعاة التنقل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ، مع ما يستدعي ذلك من عراك وعناء مع الطبيعة للحصول على مقومات الحياة الأولى».[53]

52- محمد حسن عبد الحافظ، "حكاية اليازية والعقيلي" وحكايات "السيرة الهلالية"، الموروث، ع2، يونيو 2016، ص 39

53- التغريبة، ص 5

ولعل وظيفة التحريك بلغة بروب، ظلت بارزة في التغريبة منذ بدايتها وحتى نهايتها، إذ تتجلى الوظيفة في التنقل من مكان تلو الآخر، ومن منطقة تلو الأخرى، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على تيمة الانطلاق في فضاءات اتسمت بالشساعة لا حدود ولا تفاصيل جغرافية تحددها، إذ تبقى الرغبة في التنقل هي المعيار الذي يقود البدوي هنا وهناك لا يبالي بوحوش أو أعداء، دائم الاستعداد للمواجهة. ووفق هذه المعطيات تم تدوين تغريبة بني هلال بكل تحركاتهم من الشرق إلى الغرب، وقيمهم ومبادئهم وأساليبهم في العيش. ومن ثمة دونت حدثا تاريخيا يكاد يتفق عليه جل المؤرخين، وهو نزوح بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب، فاختلطوا بالسكان الأصليين من الأمازيغ وكونوا شعبا واحدا لغته العربية ودينه الإسلام؛ بمعنى أن السيرة تقوم على سند تاريخي، غير أن الرواة أضافوا فيها ما أضافوا، وغيروا أسماء الشخصيات التاريخية بأسماء مستعارة، مثل سلامة بدل أبي زيد الهلالي، وخليفة الزناتي بدل المعز بن باديس، لكنها جاءت في السيرة بصورة مغايرة للرواية التاريخية، فقد أعمل القصاصون خيالهم فيها، فغابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس، كما غاب زعيم القبائل العربية يحيى الرياحي وابنه مؤنس، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن القصاصين الذين توالوا على وضع السيرة وروايتها، كانوا بعيدين عن أحداثها زماناً ومكاناً.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو لماذا الهروب من التاريخ الحقيقي، واستبداله بفن يجمع بين الحقيقة والخيال؟ أو لماذا لجأ الرواة إلى مثل هذا اللون من الحكي؟

مما لا شك فيه، أن أمتنا كان تدرك أن الخطر الصليبي يحيط بها، وبسبب ما تعرضت له من غزو، تقدم القصاصون والمحدّثون إلى العامة برواية قصص البطولة الخارقة والمعارك الضارية في قالب فني موسوم بالمبالغة والاختلاق، حتى جاء مَن دوّنها على حالها وبلغتها الشعبية، حتى صارت وسيلة إمتاع وتثقيف للعامة وتعبيراً عن الآمال القومية وتعويضاً عن الهزيمة التاريخية التي لحقت بالأمة، وقد عبّرت عن تطلع الأمة نحو البطولة وعن ترسيخ القيم والمثل العليا عندها. فقد هرب الرواة من واقع الانكسار والهزيمة، وراحوا يؤثثون لواقع آخر نسجوه في الخيال، ليتحدثوا عن الانتصارات الباهرة تعويضا عن النقص الذي وجدوه في واقعهم المرير.

والجدير بالإشارة، أن فن الحكي تقنية استمدها رواة السير من القرآن الكريم؛ فهو الذي عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين قص عليهم قصص الأمم السابقة، وحين وصلهم بالأمم وجعل تاريخ الخليقة مجالا لنظرهم، «إن القرآن الكريم حين فعل ذلك كله، كان يهدف إلى إثارة العبرة في نفوسهم، ولكن من المدهش حقا أن هذه الغاية الخلقية كانت أضعف المظاهر حين بدأ المسلمون بكتابة السير، وقد بدؤوها بكتابة سيرة

رسول الله، وكان هذا البدء يشير إلى درس أخلاقي عميق في حياتهم، لو شاءوا أن يتخذوا سيرة الرسول لتلك الغاية، ولكنهم لم يفعلوا بل كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى...».[54]

10- بنية الاستعمال:

استمد التداول قوته من اللغة، فكانت استدلالا بحسم أمر الغاية ومقصدها، وهو ما أنتج لنا سلطة أصبح يعرف بالخطاب، إذ تمثل تعاليا تحيط به سلسلة الأنساق التي تشعبت بها اللغة داخل المجتمع، ومن ذلك أيضا تشكل العلاقات المختلفة، حيث يكون استعمال اللغة كخطاب، فيصلا في تحديد وجهة هذه العلاقات قوة أو ضعفا. وكان من وراء هذا الاهتمام، بواعث متعددة منها ما هو ديني ومنها ما وضعي، وذلك لتشكيل خطاب ينافح ويحاجج عن بواعثه ومقاصده، [55] وإذا كان الأمر كذلك، فما مقصدية اللغة في السير الشعبية عموما وفي السيرة الهلالية خصوصا؟

نشأت السير الشعبية العربية على يد شعوب مقهورة، في ظل نظام رسمي هش، فكانت وسيلة تعبيرية رافضة للتواريخ الرسمية، لذلك أنتج رواتها تاريخا متخيلا لمناوأة الخطاب الرسمي والتحايل عليه بطريقة تفتح نوافذ أخرى لم يفتحها النسق الرسمي، وفي جميع الأحوال فقد برعت السير الشعبية في إعادة نتاج الماضي وتقديمه بصورة فاتنة تعلق بها الناس دهرا.

وهكذا دأب رواة السير على تسجيل الحوادث وروايتها بطرق مختلفة، وبمستويات متباينة من اللغة التي اختاروها، فحكي التاريخ عادة بشرية، يسخر فيه الإنسان كل أدواته التعبيرية، باعتبار أن الحكي أداة من أدوات التعبير الإنساني.

إن لغة السير الشعبية لغة سهلة يغلب عليها فن السجع، وتكاد تقترب إلى لغة التخاطب عند أهل المدينة التي يمتزج فيها الأصل العربي بروافد شعبية من مختلف الشعوب المسلمة مع بعض آثار اللغة الدارجة التي تستخدم محلياً؛ فهي تكونت بحكم المزج والاستعمال والاختلاط وبالتزاوج اللغوي، والسجع في السيرة لا يقصد لذاته كزينة لغوية، وإنما هو يقصد كوسيلة مساعدة للحفظ، وليتم تناقل السيرة مشافهة وعن طريق السماع، وكذلك يخدم هذا الهدف أيضاً الأسلوب العام المتبع في تقسيم الجمل إلى فقرات صغيرة متناسقة موسيقياً ومتساوية من حيث الطول، وعدد الحروف، ومن ناحية الإيقاع الموسيقي أيضاً[56].

54- إحسان عباس، المرجع نفسه، ص ص 12-13

55- نمار محمد، المقصدية في الخطاب السردي المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ص أ

56- ملامح عامة للسيرة الشعبية،

http://www.almasalik.com/locationPassage.do?locationId=29854&languageId=ar&passageId=11974

وهكذا كانت الأداة التعبيرية المنتقاة في التغريبة لغة موسومة بالسهولة والوضوح، والأمر في هذا الشأن في غاية البساطة، لأن صاحب السيرة كان يوجه خطابه إلى شريحة اجتماعية واسعة يلتقي فيها العامي من الناس والمثقف، يربطهم جميعا انتماء واحد، لذلك كانت ألفاظ السيرة تنهل من قاموس واضح وخال من الغموض، كي تبقى الأحداث عالقة في أذهان الناس وثابتة في قلوبهم، وتبقى المعاني حافظة لجهود الأجداد في بناء الذات وإرسائها، كما عزز الراوي لغته بأبيات شعرية منحت السيرة لغة متميزة عن لغة النثر، قصد الخروج به من لغة نمطية إلى أخرى أكثر فنية، حيث تمنحه بعض الراحة والاستمتاع تارة، وتسعفه على متابعة الأحداث تارة أخرى، بل يمكن القول إن الراوي استثمر تعددا لغويا بمفهوم ميخائيل باختين، ومنح لكل شخصية في السيرة لغتها الخاصة بها، فإذا كان أبوزيد اختار لغة الحكمة والتسامح والحرص على لم الشمل، آثر ذياب في نهاية السرية لغة التمرد والانشقاق، ما منح السيرة ثنائية لغوية تجمع بين البناء والتفكك؛ وقد اتخذ الراوي من شخصية أبي زيد الهلالي الإنسان النموذج للحفاظ على هذا البناء، ومن شخصية ذياب الإنسان الذي أسهم في تفكك البناء.

11- قيم السيرة:

إن الإنتاج الفني والجمالي والأدبي المعروف بالسير الشعبية تخلقه الجماعة الشعبية وتتبناه وتضيف إليه قيمها، التي لا يمكن اختزالها في قيم سلبية وإيجابية فقط، وإنما لابد أن ننظر إليها بالتقدير كعمل إبداعي وجمالي بما فيها من بعد درامي وتفاعل مع الشخصيات؛ وهو عمل يسهم في استمرار الإبداع السيري من خلال استلهام الموروث الشعري في أشكال فنية جديدة تضمن تأكيد الهوية واستجلاء القيم الأصيلة التي بدت في اختفاء مستمر أمام الزحف التقاني.

والظاهر، فوق ما تقدم، أن السيرة تحتفظ بقيم متنوعة تقتضي الضرورة المنهجية الوقوف عندها وفق الآتي:

ـ القيمة الإنسانية:

تقدم السيرة الهلالية هرما تراتبيا في القيم الإنسانية؛ إذ شملت السيد الممثل في الأمير سرحان والبطل الذي يتمتع بصفات الإنسانية الأخلاقية من شجاعة وذكاء وحكمة، وهو ما تجلى في شخصية أبي زيد الهلالي، ثم المرأة، بمعنى أن السيرة تقدم لنا نماذج إنسانية تبدأ من أعلى إلى أدنى، وهو ما يضع القيمة الإنسانية في درجة من التفاوت في السيرة، ويمكن القول إنه على الرغم من هذا التفاوت من حيث الدرجة الاجتماعية، فإن ثمة قواسم تجمع بينهم جميعا، ويظهر ذلك في قيم البداوة الشمولية، القائمة على التعاون واحترام الرأي وتبادله، وإكرام الضيف ورفع الظلم، فـ «البدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه

الماضي وفي كثرة من نازلهم وقاتلهم من الناس، وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف وإغاثة البائس الفقير، وأن يعطي أكثر مما يأخذ...وأن يغشى الوغى ويعف عند المغنم...»[57]

ومثل هذه القيم تشبثت بها القبائل العربية وعرفت بها منذ العصر الجاهلي، وقومها الإسلام وعززها؛ فهذه القيم هي فضائل إنسانية خالدة ظلت محفوظة في كثير من فنون التعبير الشعبي، قصد نقلها من جيل إلى آخر. ولعل من أهم القيم الإنسانية التي شاعت في السيرة هو قيم مختلفة جمعتها البطولة؛ فالزناتي بطل له قيمه، ودياب بن غانم بطل له قيمه، وأبو زيد بطل له قيمه؛ وعلى الرغم من تيمة الصراع القائم بين هؤلاء الأبطال، فإن كل بطل منهم له مكانته الخاصة واحترامه وتقديره عند الجماعة الشعبية، إن لم نقل هو احترام متبادل في ما بينهم أولا، والدليل هو تقدير أبي زيد للخليفة الزناتي بوصفه بطلا تمتع بقيم الشهامة والدهاء والشجاعة، ولم يستطع بنو هلال هزمه إلا بتوحدهم، لذلك وقف أبو زيد إجلالا وتقديرا حين وفاة هذا البطل، وأثناء دفنه.

من جهة أخرى، لا نغفل قيمة المرأة كإنسانة لعبت دورها في تحريك أحداث السيرة، وتهييج أبطالها وتحميسهم، ويمكن أن نستحضر نموذجين من المرأة في البطولة والبطولة المضادة:

- الجازية بنت سرحان نموذج لبطولة بني هلال

- زعيمة الزناتي نموذج للبطولة المضادة

- القيمة التاريخية:

تجسد السيرة الهلالية تأصيلا تاريخا لأكبر هجرة عربية، انطلقت من الشرق إلى الغرب، وقد صاحبت هذه الهجرة أحداث كبرى، تمحورت مجرياتها حول بني هلال، لذلك حوت قيما تاريخية رددها كثير من المؤرخين في مصنفاتهم، وعلى رأسهم ابن خلدون في كتابه العبر. ومن جهة ثانية، يمكن القول إن السيرة تضمنت أحداثا تاريخية يمكن عدها سجلا تاريخياً، يدعم الباحث في استجلاء معلومات تاريخية قيّمة، قد تفتح له بابا من أبواب البحث في التاريخ العربي الإسلامي، لاسيما وأن السيرة تحدثت عن رجال كافحوا وحاربوا لبناء كيانهم في موطن بعيد عن موطنهم الأصلي، وعلى المؤرخ الثقافي أن يدرك مثل هذه الأحداث ويفهمها فهما سليما؛ لأن ذلك سيكون له خير معين في كتاباته وأبحاثه.

57- التغريبة، ص 10

ـ القيمة الجغرافية:

بالإضافة إلى ما تناولته السيرة الهلالية من معانى خلقية ومثل وقيم اجتماعية، فإن راويها قدم معلومات جغرافية كأسماء البلدان والنباتات والحيوانات والجبال والصحاري، زيادة على ذلك أنها تزود الأجيال بمعرفة أصولهم وقبائلهم التي انحدروا منها.

ـ القيمة الاجتماعية:

تتضمن السيرة سلوكيات اجتماعية تجلت في السهر والمسامرات والزواج وغيرها من العادات والتقاليد والأعراف. كما تشمل بعض الألعاب والفنون الحربية والحرف اليدوية الشعبية التي تساعد على التنكر مثل ما كان يقوم به أبو زيد الهلالي، وكذلك الاحتفالات بالأعياد والأفراح والمآتم، إلى غير ذلك من الجوانب التي تدل على دواخل بني هلال النفسية. فالسيرة تقدم مجتمعا متميزا في قيمه وسلوكياته اليومية؛ يحرص فيه بنو هلال على العلاقات الاجتماعية في ما بينهم أو مع جيرانهم.

ـ القيمة الفنية:

وتبرز في فن قولي شمل لونا شعريا مميزا يعبر عن واقع الحال، إذ يشعر المرء بحالة نفسية أو يعيش تجربة يومية كرحلة سفر أو صيد أو حرب أو حب، فيترجم ما يشعر به إلى أبيات شعرية تعبر عن فلسفة مميزة في الحياة، إن لم نقل هي فلسفة تعكس رؤية الناس للحياة ومواقفها منها. وتتجلى تقنية هذه القيمة أكثر في ما يقدمه الراوي من فنيات تكشف قدرته على الإبداع المطرد لحكاياته «التي يلونها بما يلتقط من انتظارات ومعان وتعطش لدى سامعيه؛ فهو أمام مهمة إعادة خلق عالم الحكاية، باستعمال الشيفرات الثقافية للمجموعة التي يعيد تشكيلها في عمل إبداعي متفرد...إنه لا يصنع الحكاية، ولسنا نعلم من صنعها، لكنه يقدمها، وكأنها لم تحك من قبل وكأنه صانعها...»[58]؛ فهو يعيد تشكيل الحكي فنيا في صور يتداخل فيها الواقعي والتاريخي والخيالي والعجيب، وحتى الافتراضي، ويتيح حيزا رحبا للسامع للتماهي بكل تداعياته.[59]

ـ القيمة الوجدانية:

تعبر هذه القيمة عن كل ما يتعلق بمشاعر الشخصيات التي وردت في السيرة؛ فمنهم من تعلق حبا كما هو الأمر بابنة الزناتي خليفة التي علق قلبها بمرعي ابن أخت أبي زيد الهلالي، أو هذا الأخير الذي ظل يحمل في دواخله حنينا إلى أهله، أو الجازية التي ظل قلبها عالقا بزوجها الذي تركته في مكة، ولعل قول

58- ما بقي من الحكاية، المرجع نفسه، ص 101

59- نفسه، ص 101

الشعر الذي ورد في السيرة كان هو الوسيلة التعبيرية عن المواقف الوجدانية التي انوجد فيها كل شخص على حدة، وإلى جانب كل هذا عبرت السيرة عن سلوكيات انفعالية أخرى من بكاء على فقيد أو حزن على شخص عزيز، أو غضب وغيرها من السلوكيات الانفعالية.

وعلى الرغم من الوقوف عند هذه القيم التي تميزت بها السيرة، فإن ثمة عناصر أخرى وجب إثارتها في هذه الدراسة، ويتعلق الأمر باللغة التي روي بها النص، إذ تخللها اللحن وشيوع الخطأ، مما يقودنا إلى إعادة السؤال: متى رويت هذه السيرة؟ ومن هو راويها؟ وكيف تم تناقلها؟

لا شك أن عنصر الزمن، وقناة التبليغ، والمتلقي، هي عناصر تدخلت في بناء السيرة؛ فالزمن لعب دوره بين الحدث الحقيقي، وما تلاه من أحداث أخرى صنعها الراوي في أزمنة لاحقة أخرى. أما قناة التبليغ، فهي الطريقة التي وصلت بها هذه السيرة، ونقصد بذلك الرواية والسماع، إذا ما افترضنا أن المتلقي هو من عامة الناس لا يعرف القراءة، والمتلقي بدوره يغير ويبدل بلغته في الأحداث، فيضيف ويحذف ما شاء لأسباب أو أخرى. لذلك تناول الكاتب السيرة في كتابه التغريبة وفق خطوات لم تخرج عما رسمه الراوي، إذ رام عنصر التدوير في سرد الأحداث مع الحفاظ على الخط الرئيس للسيرة، ويعدّ التشويق العنصر الأهم في السيرة؛ لأنه أعطاها المدى البعيد الذي وصلت إليه، فتجاوز الواقع إلى الخيال، وساعد المؤلفين على ربط الأشياء المتباعدة، وعلى خرق الزمان والمكان، ومكنهم من تقديم وصف مثير وعجائبي للأبطال والمعارك والبيئة التي تحتضن الأحداث.

وتجدر الإشارة إلى أن طرحا سبق ذكره في بداية هذا البحث، ويتعلق بعلاقة الثقافة الشعبية بصورة عامة والسيرة منها بصورة خاصة بزمن اليوم، هل ما تزال مثل هذه الأشكال التعبيرية قادرة على مسايرة تطورات العصر؟ وهل هي قادرة على مواجهة القنوات الفضائية التي استبدلت القول بالصورة؟

لا غرو أن الأشكال التعبير الشعبي تروم الوعظ والإرشاد والتطهير النفسي، إذ تعمل على المستوى العاطفي، تسلب النفوس وتؤثر فيها، سيما الجيل الناشئ الذي تنجذب عاطفته بسرعة نحو أحداث غريبة أو مؤثرة، يعيشها ويتمثلها، ولكن أمام التطور التكنولوجي الهائل، أقام المتلقي علاقة مع الصورة، وهي علاقة زمنية محدودة وخالية من أي تفاعل، وارتمى بين أحضان عوالم لا حميمية فيها، ولكنها تبهر في الاستمتاع.

خاتمة:

تبقى السيرة الهلالية واحدة من السير الشعبية في الموروث العربي التي تؤثل لكيان صال وجال في بلاد العرب بحثا عن الاستقرار والعيش الهانئ، غير أن قيما لم تكن معهودة في عرف بني هلال تسربت إليهم من خلال تيمة الفتنة التي لعبت دورها في كسر شوكتهم وإنهاء ما حققوه من انتصارات. لكن السؤال الذي يبقى مصاحبا للسيرة، هو:

هل فعلا أن وازع القحط والجفاف هو الذي حرك بني هلال نحو بلاد المغرب؟ أم ثمة أسباب أخرى - سياسية ودينية - لم تفصح عنها السيرة كانت هي المحرك الفعلي لبني هلال إلى بلاد الغرب؟ سيما وأن العهد التاريخي الذي عاشوا فيه هو عهد صراع أيديولوجي بامتياز بين بني العباس في بغداد والفاطميين في مصر.

يقول الدكتور عبد الحميد يونس في هلاليته:

«أما الأعراب الهلالية، فقد انصرفوا إلى تحقيق مآربهم دون أن يكترثوا بالدولة العباسية التي رغبت عنهم إلى غيرهم. وكثيرا ما دفع التقلقل الداخلي أولئك الأعراب إلى الاستهانة بسلطانها والاستخفاف بعمالها. وقد كانوا متأهبين أبدا لأن يلبوا دعوة كل ثائر أيا كان مذهبه...فما كانت النحل عندهم إلا وسائل يتذرعون بها لجر المغانم والأسلاب، وكان موقفهم من الدولة التي شادوها كموقفهم من العباسيين سواء بسواء؛ فقد استطالوا عليها واستقلوا بالإتاوات دونها...وقد رأيناهم عندما شاخت دولة بني العباس لا يجدون غضاضة في التحول إلى الفاطميين الذين كانوا حربا عليهم، فتتألفهم هذه الدولة الفتية لتستخدمهم في حروبها الداخلية والخارجية على السواء».[60]

فوق ما تقدم، تختزن ثقافتنا الشعبية عددًا كبيرًا من نصوص الأدب الشعبي، فإلى جانب السيرة ثمة أغانٍ شعبية وأمثال وأحاجي وحكايات، وهي نصوص لصيقة بطبقات الشعب بوصفها الوسيلة التعبيرية التي تتخذ منها الحكمة والعبرة في توجيه سلوكها اليومي، بل هي الثقافة التي تقوم وتهذب حياة الناس وتطهر نفوسهم من كل عنصر خارج عن الذات، إنها ثقافة الفطرة التي نحن في أمس الحاجة إليها، وهي ثقافة الفطرة، لأنها تنبع من الذات وتتجه نحو الذات لتقويمها وتهذيبها.

ولأن الشعب تربطه علاقات حسية شعورية، فإنه غالبًا ما يتلمس مثل هذه الأشياء في ثقافته الشعبية التي تنقله بنصوصها المختلفة من عالم التوتر والتناقض إلى عالم الهدوء والشمولية، ولعله في انتقاله هذا يغذي

60- يونس (عبد الحميد)، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مركز الدراسات الشعبية، القاهرة 2003، ص 47

نفسه بتطهير داخلي مادته القيم النبيلة التي لم تعد حاضرة، بل هي في اختفاء مستمر أمام زحف الماديات الذي غطى القيم الإنسانية، وبدل أن يكلف الإنسان نفسه جهدًا في سبيل الحفاظ على قيمه التي تحتفظ بهويته انجرف وراء الماديات التي فرضتها المدنية الحديثة، وبدل أن يحافظ على ثقافته الفطرية التي تمنحه كيانه في البيئة التي ينتمي إليها، وتجعل منه فردًا فاعلاً في تقويم العقل وتهذيبه أولاً وتنميته ثانيًا، توجه إلى الاهتمام بصنوف حديثة من أشكال الإلقاء والحركة التي فرضتها فضائيات ما بعد الحداثة.

ملاك القول، ينطلق الأدب الشعبي من الذات وينبع منها، ينبع من الوعي المشترك بين أفراد الشعب من اللاشعور الجمعي الذي تصدر عنه الأفعال والتعبيرات الواعية التي لا يمكن إدراك مغزاها، إلا إذا بحثنا عن جذورها الباطنية؛ فأشكال التعبير من سيرة ومثل وحكاية ولغز وشعر شعبي وما إلى ذلك، كلها أنواع أدبية تمتح من حقل شعبي، غير أن بعضها يختلف عن البعض الآخر، وإن كانت صفة الشعبية تجمع بينها، والسبب هو أن كل شكل تعبيري ينبع من مجال محدد..[61]، ولا يمكن لهذه الأشكال التعبيرية أن تتكامل وتؤدي دورها، إلا إذا تم استثمارها بشكل يفيد الشعب الذي أصبح في عصرنا الحالي يجهل الكثير من هذه الأشكال الشعبية، وهذا لا يتحقق إلا بنهج استراتيجية، ليس لإحياء الأدب الشعبي فحسب، بل العمل على تطويره استجابة لشروط المرحلة التي أصبحت تستدعي التحدي.

ومع كل هذا، تظل النصوص الشعبية نصوصا ممتعة تختزن ماضينا وتحفظ هويتنا في قصص البطولة والحب والغرام والكرم، ما يشي بحفظ قيم عربية أصيلة أصبحت من تقاليدنا العربية، وقطعة من تاريخنا القومي. يقول عمر أبو النصر: «إنها جميعا قصص البطولة والحب والغرام والغزو والكرم، والحقد والحسد والمكايد والحرب في الصحراء العربية..قصص أصبحت من تقاليدنا العربية، وقطعة من تاريخنا القومي ورثناها عن آبائنا، والفناها منذ طفولتنا، فكم قرأناها صغارا، وكم استمتعنا بأخبارها وأحداثها شبابا وكهولا وشيوخا لا فرق في ذلك بين غني وفقير، وكبير وصغير... ومن المؤكد أن صغارنا سيقرؤونها، كما قرأناها، وأن شبابنا وكهولنا سيستمتعون بها في مقبلات الأيام، مادامت العربية لغة قائمة، وما ظلت هناك وفي صدر الوجود أمة عربية حية مستقلة ناهضة..»[62]

61- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة، ط2، ص ص 3-4

62- التغريبة، ص 12

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. القرآن الكريم
2. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم، دار العلم للملايين، طبعة 15، 2002، الجزء الثامن، مادة هلال بن عامر.
3. معجم المعاني
4. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ
5. أرسطو، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان
6. عمر أبو النصر، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، دار عمر أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1971
7. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة، ط2
8. ماهر عبد القادر، **التراث والحضارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت
9. مجلة الموروث، العدد2 يونيو 2016
10. مجلة سيمياء المكان في النص الأدبي، البحرين الثقافية، المنامة، ع68، 2012
11. مجلة فضاءات، طرابلس ليبيا، العدد 31، 2007
12. عبد السلام شرماط، الصراع بين الإيمان والوثنية في السيرة الشعبية الإسلامية: سيرة راس الغول أنموذجا، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود http: //www.mominoun.com/articles/search?q=راس+الغول
13. يونس (عبد الحميد)، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مركز الدراسات الشعبية، القاهرة 2003
14. Vladimir Propp, Morphologie du conte, Seuil / Points, 1965 et 1970
15. ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت 1982
16. نمار محمد، المقصدية في الخطاب السردي المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، الجزائر.
17. جيمس كليفورد، مسارات الرحلة والترجمة في زمن العولمة، ترجمة محمد بن ناصر الشوكاني، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2008
18. حسين فوزي النجار، التاريخ والسير، المكتبة الثقافية رقم 121، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة، الثقافة والإرشاد القومي، 1964م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017